

قهوة المصريين

محمد كمال حسن
مصطفى الحسيني

مدونة@الشروق

قهوة
المصريين

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

رقـــم الإيـــداع ٢٦٠٨/٢٠٠٩
ISBN 978-977-09-2611-5

٨ شـارع سيبويـه المصـرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكـس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

محمد كمال حسن
ومصطفى الحسيني

قهوة المصريين

دار الشروق

المحتويـــات

أولا كريـ

(١)

ـ أيا كمال..

ـ إزيك يا ريس.

ـ شيكو قافل تليفونه ومش هينفع ناخده.

ـ برضه؟ وشيماء برضه مش نافع.

ـ وبعدين؟ المعاد الساعة ٤ .

ـ هعمل محاولة كده ولو ما نفعش هنقضيها لوكلوك.

ـ فل يا باشا.

وهكذا اصطدت محمد ـ صديق أخي الصغير ـ الطيب قبل أن يذهب إلى كورس الانجليزي.

ـ معلش يا ابو حميد، محتاج اللاب توب ضروري جدًّا، حياة أو موت!

- تحت أمرك يا باشا، بس هتاخده ازاي؟

- في العضل ههههههههههه

- ههههههههههه

- ههههههههههه

- ههههههههههه

- ههههههههههه

- ههههههههههه

- ههههههههههه

كنا عنده في محطة كوبري القبة في الثالثة والنصف. شكرناه كما ينبغي كأي شحاذين أنيقين أوقعتهما الظروف لشحاذة لاب توب. مصطفى ارتدى بدلته البني وأنا ارتديت بدلتي الكحلي والتي أبدو بها كنصاب شديد الاحترام. وضعت على شعري كيس كريم جامد وحددت لحيتي وشعرت برضا جعلني أبتسم. نظر إليّ الحسيني وقال بتلقائية:

- عامل دقنك كده ليه زي سواقين الميكروباص؟

- جاهل.

كنت أحمل حقيبة اللاب توب السوداء ـ هدية عيد ميلادي السادس والعشرين ـ وضعت داخلها أمانة محمد الطيب وحملتها بحرص، بينما حمل الحسيني حقيبته البني وداخلها العناوين الثمانية التي أصدرناها من سلسلة «ورقة وقلم» ومجموعة من الأظرف الـA4. عدنا إلى المحطة بعد أن طمأنا محمد على لاب توبه، وعندما ركبنا المترو إلى محطة المعادي قلت للحسيني:

ـ يا عيني شفت وش محمد؟

ـ هههه آه.

ـ زي ما يكون آخر مرة هيشوف اللاب توب بتاعه.

(٢)

قلت للحسيني في محطة السادات أن يأخذ مني اللاب توب لأنه ثقيل. أخذه وأعطاني حقيبته البني التي حسدته على خفتها. كنا نريد الكتب كذلك لتكون دليلاً ماديًّا على أننا سبق لنا العمل بالنشر وبالعمل الخدمي. والأرزاق على الله، وما تبصليش بعين رضية وبص للي اندفع فيّ. كان موعدنا مع مستر ناجي مدير تسويق شركة كبيرة لنقنعه بأن ترعى الشركة الدفعة الثالثة من سلسلة «ورقة وقلم». كان محموله لا يرد مما أثار حفيظتي والحسيني. المهم دخلنا إلى الفيلا ـ مقر الشركة ـ ليخبرنا موظف الاستقبال بابتسامة مقيتة:

ـ مستر ناجي في ميتينج بره.

بعد أن خرجنا وقبل أن يفش كل واحد منا غله في الآخر، رن محمول الحسيني:

ـ أنا ناجي يا أستاذ محمد.

ـ إزي حضرتك، أنا مصطفى الحسيني معاك.

ـ أنا آسف يا أستاذ محمد.. حماتي تعبانة شوية فاضطريت أمشي.

ـ لا ألف سلامة (بيثبّته) الحقيقة أنا وكمال جايين من أكتوبر (بيحسّسه بالذنب) وكنا عايزين نخلص في المشروع (بيحسسه بالمسئولية) ده عشان الوقت (بيترجاه).

ـ (صمت طويل) طب هقولك، تعالى انت وأستاذ مصطفى على العنوان ده بعد ساعة.

شددنا الرحال (البدلة الكحلي والبدلة البني والحقيبة السوداء والحقيبة البني) إلى دير الملاك. تبادلنا الحقائب. وصلنا قبل الموعد بحوالي ساعة إلا ربع فبحثنا عن أقرب مقهى. أشار الحسيني إلى مقهى قريب كُتبت على يافطته الصفراء «قهوة أولاد كريم».

(٣)

لا أعرف كيف قرأ مصطفى اسم المقهى؛ لون اليافطة حائل وقد سقط حرفا الدال والميم. أولا كريـ محاطة من الجانبين بقماش أصفر من شركة ليبتون العلامة الصفراء، ومعلق من جوانبه في خشب معشق يحيط بجوانب المقهى. أولاد كريم قسمان: الأول هو المساحة الرسمية التي خصصتها الحكومة ولا تسع إلا ثلاث مناضد بالإضافة إلى النصبة، فيجد أصحاب المقهى أنفسهم مجبرين على إنشاء القسم الثاني، وهو الذي يحتل الرصيف. وبذلك يكون لرجال البلدية الحق في المطالبة بالغرامة!

كانت هناك طاولة واحدة فقط خالية، جلسنا إليها مباشرة، ثم سحبت مقعدًا، وضعنا عليه الحقيبتين. جلس الحسيني واضعًا محموله على الطقطوقة ومنتصبًا كالعادة بينما غطست أنا فبادرني:

ـ إوعى تنام.

ـ عيب عليك.

ـ تفتكر ناجي ده هيخلص؟

ـ بإذن الله (قلتها بتراخٍ ونعاس).

ـ البقاء لله.

أتى قهوجي غريب الملامح (هذا أصدق ما أستطيع أن أصفه به)، ابتسم كأنه لقي لقية فبادره الحسيني:

ـ ٢ شويبس.

ثم التفت إليّ وسألني:

ـ إنت مش ملاحظ حاجة؟

ـ خير (نظرت حولي أكثر من مرة).

ـ الناس دي تحسها قطعية واحدة.

ـ صحيح.. شكلهم غريب قوي.

استشعر الحسيني شيئًا ما فقال:

ـ إحنا نشرب الشويبس ونطير.

ـ أوكيح.

ارتفع صوت موجه إلينا من خلف الحسيني:

ـ وطوا صوتكو شوية.

وضعت يدي على اللاب توب بطريقة غريزية، بينما قال الرفيق مصطفى:

ـ الناس دي على رأي عبد اللطيف بتطلع طاقة سلبية.

دخل رجل (من نفس القطعية) نظر إلينا طويلاً ثم وقف إلى جوارنا ونادى:

ـ وله يا توفيق.

هرول إليه القهوجي، فأشار الرجل إلينا:

ـ إيه اللي مقعد دول هنا؟

فاجأني الحسيني الذي كان يمهد للرحيل:

ـ ما تتكلم بأسلوب أحسن يا ريت.

تدخل رجل من الداخل:

ـ خلاص يا إبراهيم ما تعملهاش ليلة.. شكلهم مش من هنا فما يعرفوش.

ـ ما نعرفش إيه يا ريس (الحسيني عدوانيًا).

ـ لا يا بيه بس دي أصلها قهوة أولاد كريم.

ـ على راسنا يا ريس، لو مانعين حد يخش قولوا (أنا متدخلاً بعدوانية مماثلة).

قال جار لنا:

ـ يا بيه القهوة دي ما بيقعدش عليها غير أولاد عيلة كريم. وكل اللي انت شايفهم دول من العيلة. إحنا ما شاء الله عيلة واحدة قاعدين في الشارع جنب بعض، فالشقق ما بتقضيش نقعد فيها فبنقعد هنا. توفيق اتكسف بس يقولكم لأنكم دخلتوا قعدتوا على طول.

رد الحسيني وهو يسحب الحقيبتين:

ـ ولا تزعلوا نفسيكو هنقوم نقعد في قهوة تانية.

ـ عليَّ الحرام من ديني ما يحصل. اقعد ان شالله للصبح انتو ضيوفنا.

تدخل آخر:

ـ خلاص يا بيه، إبراهيم كان زعلان بس لأنه نبه على توفيق أكتر من مرة، بس حصل خير اقعدوا وانتو ماشيين ما تحاسبوش.

ـ اشمعنى؟

ـ أصل دي يا بيه.. إلا اسم الكريم إيه؟

ـ محمد، وده مصطفى.

ـ أصل دي مش قهوة يا أستاذ محمد.. دي مكان بنقعد فيه.

ـ متشكرين يا ريس، على العموم إحنا مش هنطول، ربع كده ونقوم عشان عندنا معاد.

ـ على راسنا يا أستاذ محمد.

(٤)

الحسيني تقمص دور رجل أعمال صيني ففتح اللاب توب وحمّل عليه الفلاشة، كان يريد أن يختصر الوقت أمام مستر ناجي لأقصى حد ممكن. وكما يحدث في الأفلام الكوميدية حين تركز الصورة على وجه الشخصيتين الرئيسيتين ثم تفتح (تتسع) الصورة لنجد أن المكان خلف الشخصيتين مليء بالناس. حوالي عشرين فردًا من عائلة كريم كانوا يحيطون باللاب توب كأنهم يتفرجون على الساحر. هممت بأن أقول للحسيني أن يكتفي لكنَّ شخصًا ما أتى من عند النصبة مباشرة إلينا، ثم مد يده فأخذ اللاب توب من فوق الطقطوقة وأعطاه لواحد يقف إلى جواره ثم أخذ الحقيبة السوداء وأعطاها لشخص آخر ثم أخذ الحقيبة البني وأعطاها لواحد ثالث.. التفت إلينا وصرخ:

ـ إنتو لسه هنا؟

أتى توفيق وأخذ زجاجتي الشويبس، فقلت للحسيني:

ـ هنشد احنا بقه يا حسيني.

ثم قلت للرجل (إنسان الغاب طويل الناب):

ـ هنستأذن احنا بقه يا معلم.

انصرفنا بهدوء شديد ثم قال الحسيني ونحن ننظر إلى المقهى من الرصيف المقابل:

ـ إحنا بنتقلب يا ابو كمال.

ـ إحنا اتقلبنا فعلاً يا ريس.

تفاجأ الحسيني بكلمتي كأنه لم يكن يعرف، ثم بدا كأنه داهمته تعاليم دراسته الثانوية في إمبابة:

ـ لا يا كمال.. اللي يتقلِّب في شنطته كأنه اتقلِّب في لباسه.

ـ تيت يا عم الحاج هو احنا تيت ولا إيه؟!

ـ الحاجة لازم ترجع يا هولعها.. ده أنا من عاصمة جهنم يا ولاد تيت!

ـ تيت ده احنا ما نبقاش رجالة.. ده أنا أعمل عملية وأريح نفسي!

لم يكن الحسيني يبدو كشاعر في تلك اللحظة، وكأنني ألحظ في رقبته سبع غرز قرن غزال، وشعرت بالسخونة تدب فيّ أنا الآخر فقلت صارخًا بأعلى صوت:

ـ المنطقة دي هتولع باللي فيها يا ولاد تيت!

ـ مش أنا اللي اتقلّب يا ولاد تيت.. ده أنا كمال يا ولاد تيت!

ـ ده أنا ابن خالة ناصر اسباتس يا ولاد تيت!

تعبنا من الصراخ والسباب ولم يجبنا أحد كأن السباب لا يخصهم، ثم كأي روائي محترم وشاعر عامية شاب زي الفل، وكالبرنسات توجهنا إلى أقرب محل لنسأل عن أقرب قسم شرطة. كان المحل عبارة عن مركز اتصالات..

ـ إنت ياله فين القسم اللي هنا؟

ـ قسم إيه ولا مؤاخذة؟

ـ قسم البوليس يا تيت أمك.

تدخل رجل كبير مهدئني:

ـ اهدا بس يا بيه.. إنتو كنتوا عند أولاد كريم؟

صرخ الحسيني:

ـ دي المنطقة كلها عارفة بقه.. تيت ده انتو بقه....

قاطعه الحاج:

ـ إنت عايز حاجتك ولا لأ؟

قلنا:

ـ أمال هنسيبها؟

ـ يبقى انسى حكاية القسم.. القسم مش هيجيبلك حقك.

ـ إزاي الكلام ده؟

ـ خلاص يا بيه براحتك.. القسم تالت شارع على إيدك اليمين.

وقفنا وقد أدركنا بالفعل، بعد فورة حماس الثانوي، أن إيدك والأرض من البوليس، يمكن الحكومة تحبسنا أو تعلقنا.. الله! وهيبوظوا البدل!! قلت في سري: الحمد لله إنهم ما خدوش البدل. قال الحاج:

ـ كويس يا رجالة إنهم سابوا البدل.

حلو توارد الأفكار. وصرخ الحسيني:

ـ لا يا عم الحاج هو احنـ...

ـ بقولك إيه؟ الكلام ده ما يأكِّلش عيش، عايز حاجتك يبقى اسكت إنت في منطقة مش منطقتك، ولو شارع ما فيهوش غير نسوان يبقى مش هتعرف تاخد لا حق ولا باطل.

ـ تيت والحاجة؟ ده اللاب توب أمانة، تمنه خمس تلاف جنيه.

ـ همّ خدوا إيه؟

ـ شنطتين: واحدة فيها كمبيوتر والتانية فيها كتب.

قال بمنتهى الدهشة وربما الاستياء:

ـ كتب!!

ثم أكمل:

ـ طب صلوا على النبي.

ـ عليه الصلاة والسلام.

ـ أجيبهم وليَّ على شنطة الكومبيطر ٥٠٠ جنيه؟

ـ لا يا حاج، كتير؟

ـ مش كتير، احسبها هتلاقيها ١٠ ٪، إنت مش قلت تمنه خمس تلاف؟

ـ طب والشنطة التانية.. شنطة الكتب.

ـ لا يا بيه هجيبهالكم من غير حاجة (ثم أشار إلى حقيبة الحسيني البني وواحد من أولاد كريم يلقيها إلى خارج القهوة) مش هيّ دي؟

ـ بس يا حاج إحنا معاناش دلوقت غير ٣٠٠.

ـ بص يا بيه.. أنا مش واخد حاجة لنفسي، أنا لازم أراضيهم بحاجة، أمال همّ هيسيبوها ليه، عشان سواد عيوني؟ تصدق يا بيه؟ أنا هطلع من الحوار ده بخمسين جندي فقط لا غير.

ـ بس وربنا ما معانا غير ٣٠٠.

ـ ماشي يا رجالة.. عندي أنا.. شكلكم ولاد ناس.

انطلق إلى المقهى بينما دفع إلينا صاحب مركز الاتصالات كرسيين:

ـ اقعدوا يا رجالة استريحوا.. ما تخافوش هيجيب الحاجة، وهيجيبها زي ما اتاخدت.

نظرنا إلى المقعدين بشك ولم نجلس. رن محمولي:

ـ أنا ناجي يا أستاذ مصطفى.

ـ إزي حضرتك، أنا محمد.

ـ بص يا أستاذ مصطفى إنتو وصلتوا؟

ـ آه جينا في معادنا.

ـ طب بص.. تعالى على العنوان اللي ملِّيته لأستاذ محمد بعد ربع ساعة.

ـ ماشي إحنا عند سنترال التوحيد.

ـ كويس ده إنتو قربتوا خالص، أنا في انتظاركو بعد ربع ساعة. شكرًا.

بمجرد إغلاقه للخط اتصل ثانية:

ـ آسف يا أستاذ مصطفى، بس هتلاقوا قهوة اسمها أولاد كريم يا ريت ما تقعدوش عليها، فيه قهوة اسمها تفاحة اقعدوا عليها. سلام.

انطلقت في الضحك وقلت لمصطفى:

ـ مصر كلها عارفاها.

ظهر الحاج وهو يحمل الحقيبتين بصعوبة فأسرعنا إليه نحملهما ونطمئن على المحتويات.. التقط الرجل الفلوس وغادرنا بروتينية. ناداه الحسيني قبل أن يغيب فعاد إلينا:

ـ خير يا بيه؟

ـ خد العشرين جنيه دول.

ـ ليه يا بيه ما أنا خدت حقي؟

ـ معلش هتعبك يا حاج، بس أصلي نسيت موبايلي على الطقطوقة.

ما الدنيا إلا مقهى كبير

خالد ظابط شرطة مستقيل من فترة.. ليه؟... ما حدش يعرف

خالد فتح قهوة في شارع ناهيا في بولاق، قهوة فخمة ومطرزة ومدهونة بلون مش غريب على الشرطة برضه، لون أزرق فاتح مقارب للون عربية الأمن المركزي.

خالد ده يا اخوانا ما يبانش عليه خالص موضوع الظابط ده، ما فيش أي علامات غير الشنب اللي هوّ علامة المذاق، قصدي علامة الجودة الأمنية.

خالد ما بيحنش لأيام الضياع المهنية، ولا بيحن لممارسة سطوته الظباطية ولا عاداته ولا أسلوبه (المهذب) القديم، ويمكن ما فيش حد بيفتكر إنه كان ظبوط صغير ولا حاجة؛ لأنه بقى شاب كوول وروش فحت زي ما بيقول عنه وحيد.

* * *

مين وحيد ده؟.. وفين ناهيا دي؟ (على اعتبار إن فيه سياح بيقروا معانا)

وحيد!! يا نهار!! أنا هقول، مش لأنه مش مشهور ولا محتاج استيكر ولا بتاع، لكن هقول للتذكرة بس.

وحيد ده زي كارت الشحن كده، تحتاجه لما رصيدك من الضحك يقترب من النفاد، شاب فُلة، تالتة حقوق جامعة المنوفية وده مش لحاجة إلا إن مجموعه ما جابش حقوق القاهرة، مش تقصير منه ولا حاجة، عنده ٢٥ سنة وبيحب بنت اسمها إيناس في تجارة بنها. عرفها منين؟.. ما حدش يعرف.

أما ناهيا دي ولا مؤاخذة هيّ زهرة المدائن (ده على اعتبار إنك مصري وبتستعبط وعامل نفسك مش عارفها)، أما لو كنت سايح.. (سايح أصلي مش مضروب من بتوع المحاجر الروسية ولا بلدية أوكرانيا ولا من سوق الجملة في بنجلاديش) فيكفي إنك تعرف إن موسوعة جينيس حفيت ورا الحاج عبد الصمد شيخ شيوخ ناهيا علشان يقبل انضمام ناهيا للموسوعة بعد تخطيها الرقم القياسي في كل حاجة وأي حاجة، وخاصة محلات الكشري وعربيات الكبدة والقهاوي. لكن الحاج عبد الصمد رفض طبعًا ورفع إيده كلها في وش اللجنة وأمام الكاميرات واعتبرها مساومة جينيسية على حقوق اللاجئين الفلسطينيين.

* * *

أنا إيه علاقتي بالفيلم ده كله؟ وفين القهوة في كل ده؟

سؤال نضيف.. لما الإنسان تليفونه يتكهن.. مش المفترض يجيب تليفون؟.. تمام. عديت أنا وابو كمال في شارع السودان.. قلت أشوف لي تليفون عند محل (العفريت ٢) ـ هو اسمه كده ـ محل قريب من جامعة الدول وناهيا بس من ناحية شارع السودان وهو نفسه الفرع الثاني لـ(العفريت ١) جوه ناهيا. دخلنا نتفرج، قابلنا مين؟ قولوا انتو..

اسم الله عليكو.. قابلنا وحيد البيزنس اللي ما بيفصلش رصيد أبدًا. كاني وماني وسلامات وطيبون، والشاب ما عندوش يمين يحلف بيه ولا

طلاق ولا نيلة، قام حلف علينا بميِّتين أهالينا وشدد قوي على ميتين أهله وباباه ومامته (اللي همّ عايشين أساسًا) إننا نقعد مع بعض شوية على قهوة نشرب حاجة، وقالنا بتأثر قوي:

ـ عيب تبقوا في منطقتي وما نقعدش نضحك مع بعض شوية.

وطبعًا قبلنا عشان الميتين المقطقطين ما يتأثروش ويزعلوا مننا. عدينا معاه سلم ناهيا واتمشينا لحد ما وصلنا القهوة وكان في استقبالنا الشنب الفخم الأنيق وتحته الأستاذ خالد.. قصدي الباشا خالد.

* * *

ما القهوة إلا مسرح كبير

الموضوع مش شوية كراسي وكام ترابيزة وطقطوقة مركونين في دكانة أو على رصيف أو في شارع وشوية خلق قاعدة تلعب دومينو وطاولة ولا يتفرجوا على ماتش ويشربوا شايهم ويمشوا، مش بس اتنين أصحاب اتقابلوا اتكلموا شوية ومشيوا، ولا ناس عدت بالصدفة قعدت وقامت.. أنا كنت فاكرها كده، لحد ما فكرت أقعد أتفرج واسمع وبس، واعرف يعني إيه قهوة ويعني إيه حكايات ويعني إيه مسرح، ومن ساعتها وانا بعصر دماغي علشان أفتكر إمتى أول مرة قعدت على قهوة وكنت عامل ازاي، وكنت بمثِّل دور إيه واللي كان بيتفرج قبلي يا ترى كان رأيه إيه.

* * *

وحيد مالوش سيرة إلا «كحلاوي»

بيحكي لنا عنه من ساعة ما قعدنا ويا ريته بيقول حاجة مفهومة.. كل اللي طالع عليه:

ـ كحلاوي ده حتة واد.. يا نهار أبيض (ويضحك).

ـ كحلاوي ده أبوه بيعمل حاجات (ويضحك).

ـ لازم تشوفوه.. لازم، سيبكو من كل اللي قلته عنه.. هو أفظع ميت مرة (على اعتبار إنه قال حاجة).. لازم تشوفوه (ويضحك).

كل مرة بنشوف فيها الواد وحيد ده يطلع لنا بحكاية شكل وبناس غريبه ما اعرفش بيلاقيهم فين، وكل اللي فهمناه المرة دي إن كحلاوي ده (اللي أنا مش عارف عايش باسمه ازاي لحد دلوقت) يبقى صاحبه من الثانوي ومعاه في الجامعة، وإنه بيقول إنه وقع من الدور الثامن وقام نفض هدومه ودخل سوبر ماركت يشتري مربى، وإن كائنات فضائية خطفوا أبوه مرتين وحقنوه بمصل لونه رمادي لمِّيع خلاه ممكن يتضرب بالرصاص ما يموتش، وبشرنا بشرى سارة إن البرنس الهايل كحلاوي جاي له وإننا هنشوفه ونملي عنينا من تقاطيعه.. إحنا في انتظار كحلاوي.. صدورنا ملتهبة ومتشوقة وإيدينا على قلوبنا.

* * *

ما الدنيا إلا مقهى كبير

على اعتبار إن مصر مش بس أم الدنيا.. لأ وكل الدنيا وما فيها كمان. وعلى اعتبار إن الإحصائيات الرسمية من حكومة أم الدنيا وما فيها دايمًا صح.

فيه إحصائية بتقول إن فيه ١٠ مليون قهوة في مصر، يعني بمعدل قهوة لكل ٨ أشخاص. بعيد عن أي حاجة من التحليلات والحركات والتنبؤات المغرضة، وغزارة التوزيع وكثافة الإنتاج والتوتر الإقليمي

وكل ده. أنا مبسوط إن فيه حاجة في مصر مكفية وزيادة وفيه عجز في المستخدمين كمان.

* * *

كحلاوي وصل

مين فيكم يفتكر النمرود؟ أيوه النمرود اللي قابله سيدنا إبراهيم.. هوّ ما فيش غيره.. افتكرتوه؟

أهو لما شفت كحلاوي واقف قدامنا افتكرت النمرود، ومش هَوصِف بقه واقولكو حيطان وجسور ومركبات ودبابات عشان ما نظلمش الكائنات معانا.. خلينا في النمرود وانتو اتخيلوا زي ما انتو عايزين.. أطلقوا العنان لخيالكم.. بلا حدود.

قرب ناحيتنا (أعتقد اني حسيت بهزة أرضية خفيفة). سلم على وحيد بجدية شديدة ووحيد يحضنه ويضحك، وعرّفوا بينا:

ـ دول بقه كمال والحسيني.. ناس حبايبي من زمان وحكيتلهم عنك وقالوا نفسهم يشوفوك قبل ما يمشوا.

سلم علينا بنفس الجدية وهو بيضغط على صدرنا بجزء من صدره ويقول:

ـ اتشرفنا بالرجالة.. اتفضلوا.

قعدنا بهدوء وابو كمال باصص لوحيد وبيأدي حركات عادل إمام لما بيحس إنه اتدبس في حاجة، وكان نفسه يسب له في كل الميّتين اللي حلِّفنا بيهم عشان نيجي معاه، ووحيد ولا كأن فيه حاجة، لسه بيضحك. ومن غير أي داعي قال لكحلاوي وكأنه بيفتحه في الكلام:

ـ هو انت أبوك عنده كام سنة دلوقت؟

بص له وبدأ يتأثر وكأنه سأله هو مات إمتى.. شاور لخالد باشا وطلب شاي بربري سكر زيادة:

ـ أبويا.. يووه.. إنت إيه اللي فكرك بالحكاية دي؟ (وأكمل بنفس التأثر) ده ييجي ٩٢ سنة دلوقت (ورجع بضهره على الكرسي وربع إيديه) ده أبويا ده دنيا تانية.

قال وحيد وهو بيضحك لسه:

ـ بس ما يبانش عليه.. ده جعورة ولو ضرب واحد قلم هيرقده.

رد كحلاوي:

ـ أيوه يا عم.. ده جيل اتربّى تمام.. عارف أبوه اللي هو جدي يعني لما نط في البحر والحوت بلعه كان عنده كام سنة؟ (بوووم.. طخ.. طخ.. تقلصات.. زلزال تحتي أنا وابو كمال) كان عنده ٩٨ سنة.

سأله وحيد:

ـ هو نط في البحر ليه يا كحلاوي.. هه؟ نط في البحر ليه؟

بص لي أنا وابو كمال وقال:

ـ اتخانق مع أخوه الكبير اللي كان عايز ياخد ورثه من أبوه، واكمن جدي كان طيب وما لوش في الخناق ووجع القلب سابلهم البيت والبلد كلها، وركب مركب مع جماعة كانوا مسافرين الشام اللي هيّ لبنان يعني دلوقت (كحلاوي اتحول) لكن البحر هاج وماج والدنيا زعبرت والمطرة نزلت سيول سيول، قام القبطان قالهم يا اخوانا (وحيد منسجم جدًّا) المركب مش شايلانا كلنا لازم نضحي بحد فينا عشان نعيش، وطلّع بريزة

فضية من جيبه ولعبوا ملك وكتابة لحد ما جه النصيب في جدي ورمى نفسه ورموا الكراتين اللي كانت معاه وراه في الميه، وبلعه الحوت اللي بيقولوا عليه الأزرق، لكن عشان جدي راجل ربنا بتاع ربنا الحوت رماه على الشط ورجع اتجوز وخلف أبويا.

عارفين إحساس إن الواحد يوصل لمرحلة إنه مش عارف يضحك ولا يعمل إيه؟ أهو أنا وابو كمال نزل علينا سهم الله زي ما بيقولوا، باصّين لبعض ومتنحين حتى مش عارفين نقوم نمشي، وحيد ابن الـ... أقول إيه بس، لسه بيكمل:

ـ همّ سموك ليه كحلاوي؟ الاسم ده غريب قوي!

اتنهد الأسطورة كحلاوي وقال:

ـ دي حكاية طويلة هيّ كمان، بس باختصار كده الأساس كان خالي. كان عندي خال اسمه بدران لما رموه الإنجليز في النار في التل الكبير وربنا حماه وما اتحرقش خد معاه حتة فحمة سودا عشان يثبت لهم إنه حي ويشيلها تذكار (مش قلتلكو شبه النمرود الواد ده) ولما رجع الناس كلها جريوا قدامه فاكرينه مات، وكانت أمي خلفتني، فملس على وشي وكحل حواجبي بالفحمة وسماني كحلاوي.

وقفت أنا وابو كمال طبعًا وقلنا في نفس واحد:

ـ إحنا هنستأذن بقه عشان قطر أسيوط هيفوتنا.

قاملنا كحلاوي وقال:

ـ ما بدري يا رجاله.

ـ لا معلش ده إحنا استمتعنا خالص وهنتقابل تاني أكيد لسه في بقية الرسل.

ـ إيه لا مؤاخذة؟

ـ لا، قصدي يعني هنقابل وحيد وهنيجي معاه تاني.. أكيد هنتقابل.. لسه فيه كلام كبير كتير بينا.

وحيد قام عشان يوصلنا، كنا ادينالهم ضهرنا وقلت لوحيد من غير ما أبصله:

ـ خليك إحنا عارفين طريقنا.. هنشوفلنا أي هدهد طالع على أكتوبر. سلام.

عم سعيد

الأمر ليس مقصورًا عليّ، فلم أعد ألتفت له كثيرًا. العديد من الأدباء والفنانين التشكيليين والمسرحيين كان يحدث معهم نفس ما يحدث معي. ما إن نخرج من شوارعنا الأثيرة والمعارض وقاعات الندوات حتى يستوقفنا أحدهم:

ـ لو سمحت يا شيخ، الساعة كام؟

أو يحذرنا بائع:

ـ ما فيش فصال يا شيخ.

وفي المواصلات حين يصيح التَّباع:

ـ الأجرة يا شيخ.

لحيتي ليست تهمة على أي حال وهي في نفس الوقت تنم عندهم عن شخص سواي. عمومًا لم أستغرب هذا الرجل وهو ينظر إليّ مليًّا يتابعني وأنا جالس بهدوء وبلا أي مشكلات إلى هذه المقهى. لابد أنه يسأل نفسه عن السبب القهري الذي يجعل الشيخ (العبد لله) يجلس هنا إلى جوار الشيشة والدومينو والنرد وسب الدين عند الضرورة. ابتسمت داخلي. قلت لنفسي: سيتكلم معي حالاً.

اقترب وقال:

ـ تشرب إيه يا شيخ؟

طلع القهوجي! لكنه كبير السن وملامحه أكاد أكون قد رأيتها من قبل ولا أذكر أين. المهم:

ـ شاي بالنعناع.

نادى:

ـ طيارة بالنعناع يا خالد.

ظل واقفًا للحظات ثم جذب مقعدًا واقترب ثم جلس:

ـ خطوة عزيزة يا شيخ.

ـ الله يعز مقدارك يا عم......؟

ـ سعيد، بس قولّي العقاد.

ـ الله يعزك يا عم عقاد.

زوى بين حاجبيه:

ـ لا.... العقاد.

استشعرت قليلاً من التوتر فرددت:

ـ ماشي، الله يعزك يا عم العقاد.

لم ألتفت إلى ضرورة نطق اسمه كما يريد، كنت مشغولاً أكثر بكيفية نطقه بالألف واللام، إضافة إلى أنه يبدو كشخص غير مريح.. نموذج من كبار السن الذين يجلسون إلى جوارك يتحدثون في كل شيء وإذا لم تعطهم أذنك فإنك تتحول على الفور إلى نموذج لقلة الرباية وجيل

آخر زمن. بدأت أشعر أنه سيكون رفيق المجلس إلى أن يأتي مصطفى الحسيني ومعه عبد اللطيف لنذهب سويًّا إلى شراء ديكودر وطبق. نظرت إليه متحفزًا بعض الشيء ومنتظرًا باقي كلامه.

ـ لا مؤاخذة يا شيخ إني قطعت عليك خلوتك.

ـ ولا يهمك.

ـ أصلها أول مرة أشوفك.

ـ لا أنا باجي هنا كتير بس بالليل لما شوقي بيستلم. أنا النهارده كده بظروفها. مستني جماعة اصحابي.

حك الرجل ذقنه النابتة عندما جاء ذكر أصحابي، وشعرت بأن الشاي الذي يرقد داخل كوبه الزجاجية والذي أحضره الصبي حالاً ربما سينذر بشيء ما.

ـ إنت منين يا شيخ؟

ـ ساكن في ٦ أكتوبر.

ـ وإيه اللي جابك هنا؟

ـ كنت في مشوار يا عم...

ـ ها..!

ـ العقاد.

ـ عال، واسم الكريم إيه؟

ـ محمد.. محمد كمال.

ـ وبتشتغل إيه بقه يا شيخ محمد؟

امممم، هذا السؤال الذي أمقته. أقابل الناس فأجدهم دائمي السؤال عن مهنتي ودائمي عدم التصديق لكون شخص ما يمتهن الكتابة. لم أجد شخصًا واحدًا لم يستغرب هذه المهنة مع أن الناس لديهم كامل الاستعداد لتقبل المحامي والمدرس وعامل النظافة والطبيب والمدرس. يقولون: وهيّ دي حاجة تأكِّل عيش؟ فأقول: وهو إيه ممكن يأكلنا عيش؟ أبتسم في وجه من يسألني وأرفض المزيد من الثرثرة حول مهنتي.

كرر عم سعيد العقاد، ولكن هذه المرة بلهجة أقرب إلى لهجة محمود مرسي في فيلم شيء من الخوف:

ـ بتشتغل إيه؟

ـ صحفي.

كانت هذه الإجابة كافية لتجنب الحوار حول الكتابة مع قهوجي دسيسة، إلا أنه قال:

ـ صحفي فين؟

ـ بشتغل صحفي في جرنان جديد يمكن ما تسمعش عنه.

اعتدل كأنه شعر بالإهانة وقال:

ـ العقاد ما يعرفش.

أها.. هذه هي النقرة التي أنتظرها. نقرة لا أعرف كيف ستأتي ولكنها ستخلق سببها وتأتي، هل يدقني بمسمارين على النصبة.

ـ لا مؤاخذة يا العقاد مش قصدي، بس ناس كتير قوي ما يعرفوش الجرنان فبيكسفوني ويقعدوا يتريقوا عليَّ.

ـ ولا يهمك بس ما تعملهاش تاني. على كده بقه إنت خريج إيه؟

ـ أنا آداب عربي.

ـ جامعة إيه؟

ـ القاهرة.

ابتسم الرجل ابتسامة غريبة وضيق حدقتيه وسأل:

ـ تعرف مين اتخرج في الكلية دي؟

أنا قلت الرجل غير طبيعي فلم يصدقني أحد. عواقب الإجابة أيًا كانت غير مضمونة. ذكرني سؤاله بسؤال شهير من رئيس لجنة امتحانات لطالب عن عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية فلما أجابه قال الممتحن: تقدر تقولي أسماءهم. قلت فورًا:

ـ مش عارف والله يا عم عقاد.

دفع الرجل المقعد الذي يستند إليه وقال غاضبًا:

ـ وبعدين بقه!! بعدين معاك يا شيخ.

ـ لا مؤاخذة لا مواخذة.. العقاد العقاد آسف. مش عارف والله يا عم العقاد.

هدأ الرجل في ثانية كأن لم يكن غاضبًا وقال مؤنبًا:

ـ مش عارف؟؟ وعاملّي صحفي وقرد، ماشي.

انتهيت من شايي وبدأت أعي أن الحسيني وعبد اللطيف تأخرا بالفعل، وتذكرت أن مقاهي الجيزة حتى الآن لبش. قلت كأن الدمع سيطفر من عيني:

ـ فيه إيه بس يا حاج؟

ـ أنا مش حاج.

ـ معلش!

ـ ها بقه.. قلت لي مش عارف مين اتخرج من كليتك؟؟

ـ أنا لو اعرف هخبي ليه بس يا عم العقاد.

ـ ما تعرفش صلاح عبد الصبور وطه حسين وشوقي ضيف؟

لمحت بضعة أشخاص تركوا اللعب في الخلفية وبدأوا ينتبهون مع عم سعيد. لم ألحظ كذلك أنه بالفعل صار صوته أعلى مما ينبغي.

ـ ما لك يا شيخ محمد؟ مش عارف صلاح عبد الصبور.

تأملته مرة ثانية محاولاً تذكر أين رأيته من قبل. هذا الطول الفارع والطاقية الصوف والكوفية، هذا الوجه المتغضن ونبرة الصوت، هذه اللهجة الآمرة غير العابئة.. وكما يحدث في روايات ملف المستقبل لنبيل فاروق. حين يحل نور الدين محمود اللغز فتبرق عيناه. برقت عيناي وصحت داخلي: يا ابن اللعيبة يا جامد. يا بن الإيبيه، العقاااد. لهذا مصمم على الألف واللام، يا ابن الذين يا فقري. إنت شبهه بالمللي يا معلم.

ـ ما لك يا شيخ؟

ضحكت بعنف وقلت بين قهقهاتي:

ـ لا مؤاخذة يا عم العقاد. أصل كنت فاهم سؤالك حاجة تانية.

ـ حاجة زي إيه؟

ـ ولا يهمك ولا يهمك.. بس أعرف طبعًا دكتور طه وشوقي ضيف وصلاح عبد الصبور ودرست له قصائد كمان.

لمحت قلقًا متزايدًا في الخلفية ونطق رجل ما:

ـ الله يخرب بيتك يا شيخ هيّ ناقصة.. اهدا يا العقاد، مش هتعملك كل يوم أفشخانات.

لم أدر تحديدًا ما تلك الأفشخانات التي يرتكبها العقاد يوميًّا. إلا أنني فهمت أن أفشخانة اليوم مرتبطة بي على نحو أو آخر. وقف عم سعيد بلا داعي ثم نظر إليّ. وقفت بلا إرادية. نظر إليّ جيدًا ثم جلس فجلست. تذكرت عادل إمام عندما كان جالسًا أمام الأسد في شاهد ما شافش حاجة، وهو يقوم ويجلس متابعًا حركة الأسد. فكرت: هل سيأكلني العقاد؟

قال بعنف:

ـ إنت عارف طبعًا إن صلاح عبد الصبور ما بيحبش العقاد.

ـ بس انا بحب العقاد، قسمًا بعزة جلال....

ـ وعارف إن العقاد ما بيحبش صلاح عبد الصبور؟

ـ ده كان ف الأول بس، لكن (تحرك عم سعيد) فضل لغاية ما مات مش طايقه.

ـ وعارف إنه ما كانش بيحب حجازي؟

ـ طبعًا .. طبعًا.. ما تخافش يا العقاد.

الحسيني وعبد اللطيف تأخرا جدًّا. فكرت أني سأقوم حالاً وسأتصل بهما لأخبرهما بمكاني الجديد. سحبت محمولي من فوق الطقطوقة.

ـ رايح فين؟

ـ اتأخرت و....

ـ انت مش قلت مستني اصحابك؟

ـ شكلهم مش جايين.

ـ فتقوم سايبني وانا بكلمك وماشي، صح؟

ـ لا مش قصدي والله.

وقف فوقفت وقال فانتبهت:

ـ قولّي... إنت بتحب صلاح عبد الصبور؟

ـ ده بيكتب شعر حر.. أصل هقولك يا عم العقاد.. الشعر شعر.. يا نكتب زي ما الناس بتكتب يا نقعد ف بيوتنا.

ـ بس الكلام ده كان زمان ولا انت بتقول أي كلام عشان ما اضربكش.

ـ تتضربني.. تتضربني ليه؟

ازداد تجمهر الناس في الخلفية ولمحت من بعيد شابين طويلين وعريضين إلى حد ما يأتيان مسرعين نحوي. ازداد توتري وكرر هو:

ـ إنت ما رديتش عليَّ.. بتحب صلاح عبد الصبور؟

ـ صلاح مات من ٢٥ سنة.

تدخل أناس:

ـ خلاص يا شيخ صلِّ على النبي.. خلاص يا العقاد اقعد واهدى.

أمسكني من ياقتي وكرر:

ـ بتحب صلاح عبد الصبور؟

أقفلت يدي جيدًا على المحمول وبيدي الأخرى على حقيبتي السوداء وهو يكرر:

ـ رد عليَّ.. بتحب صلاح عبد الصبور؟

أمسك به الناس فابتعدت بياقتي وأسقطت عليه الطقطوقة وصرخت:

ـ آه.

وقبل أن يلحق بي الشابان انطلقت في الجري.. شاب ملتح أنيق ويحمل حقيبة سوداء ويجري باتجاه شارع البحر الأعظم ناحية قسم الجيزة على البحر. أعدل نظارتي فوق أنفي وأشعر بمن يجري خلفي. كنت أصرخ:

ـ أنا بحب صلاح عبد الصبور.. أنا بحب صلاح عبد الصبور.

كانت لهجتي مثل لهجة أهل القرية وهم يصرخون بعماد حمدي: الغازية لازم تنزل.. الغازية لازم تنزل.

وأخذت أكرر:

ـ أنا بحب صلاح عبد الصبور.. أنا بحب صلاح عبد الصبور.

صرخ أحدهم من ورائي:

ـ إستنى.. اقف ياله.

ـ أنا بحب صلاح عبد الصبور.

ـ إستنى يا مجنون.

ـ أنا بحب صلاح عبد الصبور.

كسرت أول يمين ف أول شمال إلى أن قال الهاتف الداعي:

ـ أنا عبده ياله.. يا مجنون انت.. اقف ما تخافش ما فيش حد بيجري وراك.

بعد عشرين مترًا توقفت من التعب وثقل حقيبتي السوداء. أهاا أنتما إذن. كان الحسيني وعبد اللطيف هما اللذين يقتربان وأنا في المقهى. أسندني عبد اللطيف وقال بحنانه الأبوي المعروف:

ـ استريح، خد نفسك، فيه إيه؟

ـ العقاد كان عايز يضربني عشان صلاح عبد الصبور.

نظر إليَّ بإشفاق شديد، فقال الحسيني:

ـ اهدا بس يا ابو كمال.. إيه اللي حصل؟

ـ العقاد كان عايز يضربني، أمال كنت بجري منه ليه؟

تبادل مصطفى نظرات خاصة مع عبد اللطيف، فقلت بغضب:

ـ إنتو فاكريني اتجننت، بقولكم العقاد كان عايز يضربني.

تأملت صمتهما للحظات.. كانا واجمين حزينين إلى أن أدركت غرابة ما أقول بالنسبة إليهما فانفجرت ضاحكًا بعنف وصخب فرَّجا علينا الشارع. لي ضحكة شهيرة حين أضحكها أقع على الأرض وتدمع عيناي. بين قهقهاتي الأسطورية كنت أقول:

ـ آه والله العقاد. وصلاح بحبه.. أنا بحب صلاح.

جلس عبد اللطيف على الرصيف يفكر فيما أصاب ابنه الروائي، بينما أعتقد أن مصطفى الحسيني كان يفكر في تلك اللحظات أن «ورقة وقلم» صار لها مؤسس واحد الآن وعليه أن يتحمل المسئولية بشرف.

قهوة عسلية

الجيارة كلها تقريبًا كانت تعرف ما يمكن أن يحدث إن مر كلب أسود أمام مقهى عسلية. وبما أني أنا وصاحبي كنا جددًا على المقهى، بل وعلي الجيارة كلها فكنا زبائن هذه الليلة. وضع تحت كلمة زبائن ١٣١ خطًا إن أردت.

دائمًا ما كنا نجلس إلى مقهى قريب من جامع عمرو بن العاص، المكان هادئ هناك ونذهب إليه حين نضجر من الزحام والوشّ، ولكن هذه الليلة كنا متعبين فجلسنا إلى أقرب مقهى قابلنا في المنطقة واخترنا الصف، أول صف من الكراسي التي تكاد تصل إلى منتصف الشارع الذي لا يمر به شيء تقريبًا، لا سيارات ولا بشر ولا حتى صوت يأتي من بعيد مع أن الشارع الرئيسي به ما يكفي من الضجيج، ولكن بمجرد أن دخلنا إلى الشارع وكأننا انفصلنا عن الكون وتسيدت حالة من الصمت لم أر مثلها إلا في هذا الشارع، حتى صوت التليفزيون الذي لا نراه يصل من داخل المقهى بصعوبة، وأقول في نفسي إن تليفزيون في مقهى كهذه لا بد أنه ليس به إلا القناة الأولى والثالثة وقد يكون أبيض وأسود أساسًا.

بمجرد أن وضعنا جسمنا على الكراسي سمعنا صوتًا يخرج من قفا البدل.

ـ يا مرحب يا باشاوات.. تشربوا إيه؟

عسلية ـ كما قال اسمه فيما بعد ـ جدارٌ له ثلاثة أبواب أحدهما كان سد علينا الرؤية فلم نر باقي الجدار. انكمشت في البدلة للحظة ثم نظرت لكمال وحركت رأسي ناحية القهوجي وتلبَّسني عادل إمام وكنت هقول لكمال رد على البيه، فقال له اتنين شاي بالنعناع سكر زيادة، وتحرك القهوجي دون أن يرد أو حتى ينظر لنا، سحبت الطقطوقة، لأسند عليها الشنطة فامتلأت يدي بالتراب وتخيلت البدلة اللي حيلتي دلوقت حالتها إيه من الكرسي البلاستيك الأخضر وكمية التراب في البنطلون، ولكن من تعبي لم أتحرك غير أني صرخت فجأة في كمال:

ـ إيه يا عم الحاج القهاوي دي إحنا ناقصين.

وطبعًا الناس كلها عينيها اتحجرت على وشوشنا والهمهمة والتأتأة ثم صمت، والقهوجي فط من قفانا بصوته اللي محتاج يتشحم:

ـ ليه كده يا باشا إيه اللي جرى بس لا سمح الله (بترقيق اللام).

فتنحنحت وقلت بهدوء: «لا، بس التراب على الكراسي بهدلنا».

في ثانية أخرج فوطة وقومني وهو يقول:

ـ يا نهار يا باشا معلش امسحها فيّ ومسح الكراسي وقال اتفضلوا إوعى تزعل يا باشا والنبي عشان خاطري، ها.. البشوات يشربوا إيه بقه؟

فابتسمت متوجسًا وقلت له: تاني.. طب مش لما تجيب الشاي.

فرد ببراءة شديدة: إنتو طلبتوا شاي؟! والله بجد.. تيب حاضر عيني.. لا مؤاخذة.. تيب ثواني تيب عينيّ. وتحرك بسرعة.

ابتسمت وأنا أتابع مشيته وهو يحرك رأسه في اتجاه وجسمه في

اتجاه وأهمهم «تيب تيب» مين ده؟ وأعود لكمال الصامت على غير العادة من أول ما خرجنا من مقابلة الشغل في المنيل، عنده حق ما فيش مجال خالص للكلام إحنا تكلمنا كتير النهارده ومحتاجين شويه صمت ولذلك جئنا لقهوة هادئة. أبو كمال غطس في الكرسي مثل عادته أيضًا حين يكون متعبًا يقول لي:

ـ سيبني ربع كده هنام واقوم زي الفل ومعاك فايق للفجر لو عايز.

قلت له اتوكل وقعدت أفكر في الفراغ شوية ومستني الشاي وتجولت بعيني على الناس في ضهرنا، بمجرد ما لوحت رأسي وجدت الناس متنحين لنا فرجعت كما كنت ولسه هقول يا ابو كمال لقيت القهوجي بيستعرض حنجرته المجوفة وهو جاي ناحيتي:

ـ أحلى شاااي لأحلى باشوات. وضع الشاي وقال لي هو الباشا منين؟ فقلت في نفسي إيه القهوجي الغريب ده! السؤال المفروض يكون اسم الكريم إيه كده يعني قلت له: من إمبابة اشمعنى يعني. قال: أصلك تشبه لواحد حبيبي بس هو مش باشا زي سعادتك بدلة وجرافتة وكده. قلت له: يا عم إنت بتصدق.. ده عشان الشغل بس.. إحنا كلنا اخوات.. إنت اسمك إيه بقه. نزل ناحيتي كام دور لحد ما وصل لوشي وبص في ضهره وهس لحظة وقال لي «عسلية». قلت: ماشي يا عم عسلية.

لف ضهره وقال: أحلى اسطباحة يا باشا. وراح ناحية النصبة.

بصيت على كمال كان غرقان في الكرسي قلت وكأنه سامعني: ما تقوم يا عم الحاج تشوف النيلة اللي احنا فيها دي.. ما علينا. خرجت الموبايل أعمل أي حاجة إلى أن تفوت الربع ساعة. يدوب فتحت الموبايل وصوت خرم رأسي من ورا:

ـ يابا دي عيال سيس.. عارف دخلوا فاردين صدرهم ورسموا الشويتين وحركات وبدل ومبايلات وفي الآخر كلوا علقة كانوا بيعيطوا زي العيال النغة. وصوت بيرد عليه:

ـ دول أصلك إيه.. أقولك يا معلم.. دول بيبقوا بقه إيه باعتينهم يقطروا واحد فيبقوا إيه فاكرين انهم يعني رجالة وبتاع وإيه فاهم انت.. بس رجالة إنكم إيه رفعتوهم ولاد الـ......دول.

رجعت في الكرسي شوية وزرعت وشي في الموبايل وفتحت لعبة سباق العربيات اللي عمري ما لعبتها، ورفع صوت ثالث في قفاي:

ـ كده الصح عشان مش كل ابن شـ...... يفتكر ان المنطقة سداح مداح.. مش مزرعة حمير هيّ، العب واخلص بروح امك الدوسة حمضت في إيدي.

أنا سقطت في الكرسي ولعنت وسبيت لابو كمال بس ما استجريتش أزعق فيه علشان يصحى، مديت إيدي على كباية الشاي ولسه هشرب القهوجي فط قدامي فانتفضت وكنت هلبسه الكباية في وشه، زيق بصوته:

ـ الباشا بتاعنا.. الشاي مش عاجبك ولا إيه؟

رجعت في مكاني على الكرسي وقلت له وأنا أبلع ريقي: لا، زي الفل يا عسلية تسلم إيدك.. بس بحبه بارد شوية.

رد بهدوء: ماشي يا باشا. واتحرك من أمامي في ثانية.

مسكت الكباية وأخدت بق لقيت الشاي ما فيهوش سكر ما قدرتش أمسك نفسي واتعفرت التفت وصرخت بعصبية:

ـ يا عسلية.. إنت يا عسلية انت.

كمال انتفض مكانه وقال: فيه إيه؟ في هذه اللحظة كان هناك شيء ما يتحرك ناحيتنا ممكن نقول عليه مجازًا «إنسان»، ووقف أمامنا.. رجل

بجلابية بني، مثل عسلية القهوجي مرتين ونصف وعلى رأسه طاقية صغيرة وقورته متضخمة، وقال أو يتهيألي أنه قال:

ـ إنت اللي بتنادي.. (وعيناه تحتوينا نحن الاثنين).

بصيت لكمال وبصراحة صعب عليَّ أقول للرجل: لأ.. هو ده، فقلت:

ـ أنا ناديت على عسلية علشان الشاي ما فيهو.......(قاطعني):

ـ عسلية كده حاف.. إيه الحلاوة دي.

قلت باندهاش وبخوف الصراحة:

ـ أمال أقول يا إيه؟ قال لي في ثانية:

ـ كلك نظر.. (وقرب من وشي) ولا دول مش عينين لا مؤاخذة.

ما عرفتش اقول حاجة وكمال قال: هو إيه اللي حصل ووجه كلامه للرجل:

ـ إيه يا ريس فيه إيه؟

الراجل سمع كلمة ريس وصوته زمجر وقال له:

ـ ريس.. ريس إيه يا حلو انت وهوّ (ما اعرفش زعل ليه من ريس مع إنها حلوة والله) إنتو منين ياد انت وهوّ.

إحنا سمعنا ياد دي وشوحنا وفي صوت واحد: ما تتلم يا عم انت.

بس انا كنت أقرب للرجل المنشأة ده فمسك كتفي وحوط على كمال وقال:

ـ أنا عسلية يا أمّور انت وهو.. أي خدمة.

أنا وشي جاب علامة X ما اعرفش ازاي.. وقلت له:

ـ اسمك عسلية برضه.. أنا.. أنا ما قصدتكش انت.. أنا قصدت عسلية القهوجي، مش انت.

الرجل عروقه نفرت وقال:

ـ ما فيش عسلية هنا غيري أنا المعلم عسلية (بتفخيم كل الحروف) صاحب القهوة.

حاولت أتلفت على القهوجي كان واقف في ضهره والناس تجمعوا حولنا فشاورت له على عسلية: أهه ده هو عسلية القهوجي.

الرجل ولا حتى التفت وسألنا بصوت أعتقد سمعته في أفلام كائنات الفضاء والخيال العلمي من قبل:

ـ إنتو من طرف رءوف؟؟!!

طبعًا كمال لسه مذهول ومزبهل من كل ما يحدث وأكيد بيقول في نفسه: «أنا يدوب نمت ربع كل ده حصل»!

وأنا بدأت أحس إني في فيلم كرتون وكنت سأنفجر في الضحك حين سمعت صوته وهو يقول رءوف.. وخفت أن يضحك كمال ضحكته الأسطورية فأضحك ولا أسيطر على نفسي.

الرجل حس أنه سأل ولم يجبه أحد فتمكن الموضوع من رأسه على اعتبار أن السكوت علامة الرضا كما يقولون، وانطلق في الزعيق والشخير:

ـ تبقوا من طرف رءوف يا ولاد القـــ.........

وانا سمعت رءوف تاني وانفجرت في الضحك وهكذا كمال وهمّ نازلين سب ولعن وطرمخة في أهالينا. لكن الغريب أنهم لم يضربونا.. يا دوب كم خبطة في أكتافنا من القهوجي والناس اللى بتجامل وطبعًا المعلم عسلية (على حد قوله) شلفط البدل وأكتافنا وهو يودي ويجيب

بكفوفه المبطرخة في ياقات البدل واحنا نتمرجح في إيديه. وقال بنفس الصوت وهو لا يزال يمرجحنا:

ـ قولوا لرءوف (واحنا نحاول نقول: رءوف مين يا عم الحاج ولا أي حدّ سامعنا من صوته الجهور) قولوا لرءوف إن الواد أنوس خلاص ما بقاش عندي وما بقاش ييجي هنا وان كان عايز يقطره يبقى يغور في داهية بعيد عن المخروبة القهوة (ويمرجح وكأننا حتة عجينة في إيديه) وقسمًا عظمًا.. والولعة دي لو حد هوِّب هنا تاني لاكون مقلعه بنطلونه وغازه في الكريمة عشان يبقى عبرة.. قولوا لرءوف كده بس وهو هيفتكر (وانا لسه بحاول اقوله يا عـم رؤوف مين بس وكمال لسه بيحاول يقول يا ريس هو فيه إيه اللي حصل) وهو يواصل: ورحمة أمي والنعمة الطاهرة دي (ويلحس صباعه) والنعمة دي والنعمة دي أي كلب منكم لابس بدلة سودا وعاملي باشا هيلمس برجله عتبة القهوة ولا الشارع ولا الجيارة كلها لاكون مخليه مرة.. مرة إنتو فاهمين.. وزقنا بإيديه: ياللا في داهية ابقوا سلمولي على رءوف.

كمال لا يزال يحاول أن يفهم وأنا تحركت بسرعة وأنا بشده من دراعه وهو لسه بيقولي هوَّ إيه اللي حصل.. إلى أن خرجنا من الجيارة كلها. وقفت في شارع الملك الصالح أخذت نفسي وشددت صدري وقلت وأنا أضغط على ذراعه:

ـ بص يا عم كمال.. قهاوي تاني لأ.. عليَّ الطلاق ما هقعد على قهوة تاني، ولا هسيبك تنام لا ربع ولا نص.

وتحركت وذراعه لا تزال في يدي وهو يهمهم:

ـ مين رءوف ده ومين أنوس ومين عسلية ويسكت.. أنام ربع يجرى كل ده!

قهوة الرخاوي

(١)

منذ أن انتقلت للسكن في مدينة السادس من أكتوبر ـ والتي تحولت إلى محافظة فيما بعد ـ وأنا أتأخر عن مواعيدي بشكل منتظم. يقول المقربون إني أتأخر منذ أن عرفوني ولكني لا أهتم لأني مقتنع أني لم أكن أتأخر، كما أن الحكومة مقتنعة تمامًا ومعها شركة المقاولون العرب أنهم يسابقون الزمن في الانتهاء من أعمال تطوير وتوسيع وصيانة محور الموت الشهير بمحور ٢٦ يوليو. كانوا قد أعلنوا أنهم سينفذون الأعمال في ثلاثة أشهر ثم ـ ولأن الشكوى لغير الله مذلة ـ افتتح المحور بعد الصيانة بعد حوالي تسعة أشهر وهو غير كامل ومع عيوب فنية شديدة الوضوح. وقبل صيانة المحور كنت أتأخر كذلك لأن الحكومة تسابق الزمن ومعها شركة المقاولون العرب في الانتهاء من إنشاء الوصلة بين نهاية كوبري المحور وبين ميدان لبنان لتخفيف الضغط المروري على الميدان. بالطبع هذه الوصلة القصيرة والتي لا تتجاوز مائتي متر استغرقت ما يقرب من العام. اللافتات الصفراء على جانبي المحور تخبرني أني لم

ألتفت إلى حجم العمال والماكينات والأعمال، وأني مقصر في الثناء على الحكومة وشركة المقاولون العرب. قبل أن أنتقل للسكن في أكتوبر كنت أشاهد الإعلانات التي تقول إن المسافة عشرون دقيقة. لم أكن مصدقًا، فأنا كثيرًا ما يزورني مندوبو الإعلانات في منزلي لإخباري بأني فزت في مسابقة، وأني وبالصلاة على سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كسبت دعوة لخمسة أفراد لمسرحية كيمو والفستان الأزرق، وأنهم كذلك يريدون عشرين جنيهًا ضمانًا للجدية على أن أسترجعها لما اشوف حلمة ودني. أتذكر عشرين جنيهًا وعشرين دقيقة ولا أشعر بالتفاؤل.. ثمة عائق بيني وبين العشرين فيما يبدو. لذا كنت أشعر بالدهشة العميقة عندما وصلت من أكتوبر إلى ميدان لبنان في ساعة ونصف الساعة على الأقل ولم أجد الحسيني في انتظاري عند موقف أوتوبيس ميدان لبنان كما اتفقنا.

(٢)

يقول المقربون وغير المقربين والعالمون وغير العالمين إن مصطفى الحسيني لا يأتي أبدًا في موعده. أقول لهم: لا يا جماعة ربنا يكره الظلم. وأنا أعرف أن الحسيني لا يأتي إلا في مواعيد العمل مع العملاء الغرباء. أما أنا وأصدقاؤه وزملاؤه وإخوته فلا يوجد مانع أن يطلع تلات تيت أهالينا في انتظاره. اممممم الحسيني يسكن في هذه الحكاية في مطار إمبابة ولمن لا يعرف فإن المسافة من بيته وحتى موقف أوتوبيس لبنان أقل من عشرة دقائق.

كنت في الأول أتضايق وأشعر بأنه لا يقدر مجيئي من أكتوبر مقتحمًا سائقي الميكروباظات الذين يقطعون المسافة، ومقتحمًا البقاء متيبسًا

لمدة ساعة ونصف في أربعة كيلو مترات في المحور الذي تسابق فيه الحكومة الزمن مع شركة المقاولون العرب، بالإضافة للحرارة ولكاسيت الميكروباظ.

أما الآن، لم أعد أكترث. يأتي مصطفى أو لا يأتي. يعمل حادثة ولا بيته يتهد ولا يولع حتى غير مهم، المهم أن الجو حار ولا بد أن أجد مقهى قريبًا أجلس فيه.

اتصل الحسيني وقال:

ـ معلش يا معلم.. هتأخر شوية أصل الطريق واقف في شارع مراد.. أصل الحكومة ومعاها شركة المقاولون العرب بيسابقوا الزمن عشان يفتتحوا نفق مراد.

ولأن الحسيني سيتأخر حتى لو كان الطريق خاليًا فلا بد أن أبدل المقاهي حتى لا يقتلني الملل لأن عبد اللطيف أبو هيف (كما يطلق عليه الحسيني) أبدى ملاحظة مهمة وهي أن طول أصابع يدي اليمنى ليس بنفس طول أصابع اليد اليسرى، وأن هذا حدث منذ أن توطدت علاقتي بالحسيني.. اممم ممكن يا عبده. الحسيني عندما يقترب فإنه يتصل بي ليعرف هل أجلس عند مزلقان أرض اللواء أم داخل شارع خطاب أم عند المواسير أم عند عربات الطريق الأبيض.

قررت أن أنتظره في مكان مختلف، في المهندسين نفسها. الوجه الأول لميدان لبنان. كنا سنذهب إلى مقابلة سيدة أعمال بالقرب من شارع سوريا. أخبرت الحسيني أن موعدنا في الرابعة وأن موعدي معه في الثالثة لنتناقش حول بعض التفاصيل قبل أن نذهب إليها. طبعًا كان الموعد الحقيقي في الخامسة. يقول عبد اللطيف: لماذا تذهب إذن في موعدك؟ لا أعرف، فقط أخاف أن يعرف أني أتأخر فيتأخر أكثر تحسبًا لتأخري.

(٣)

كانت المهندسين قد أضفت صبغتها على المقهى فصار مرحلة انتقالية بين المقهى المعتاد والكافيه أبو مينيمَم تشارچ (minimum charge). كانت تلك أول مرة أرى فيها طبق صيني تحت كوب الشاي ومعه سكرية زي الفل وعليه رسوم. وكرد فعل طبيعي ابتسمت في وجه الجرسون ـ القهوجي الذي رد بطبيعية بقلب شفتيه بامتعاض واضح. راودني شعور تلقائي بالغضب من الحسيني الذي جعلني في انتظاره دائمًا عرضة للبشر.

كان التليفزيون على محطة ميلودي أفلام التي تتحدى الملل. كانت تذيع فيلمًا غير معروف وغير مفهوم. يعني تقدر تقول إنها لم تكن تعرض شيئًا. وصل الفيلم المجهول إلى فاصل أصفر فمددت يدي إلى كوب الشاي. وجدت رجلاً جالسًا جواري إلى نفس طاولتي. لا أدري متى جلس ولا كيف، لم أنتبه إليه. قال:

ـ أفلام ولا لها لزوم. حاجة تقرف. تعرف يا شيخ؟ أنا هنا تقريبًا كل يوم. وعم بدوي صاحب القهوة مشغل دايمًا ميلودي. عليهم إعلانات ما يعلم بيها إلا ربنا. وواد أصفر أجارك الله. وعهد الله ما اعرف بيجيبوا الأفلام دي منين. تعرف يا شيخ إن القناة دي بتاعة حفيد عبد الناصر؟.. آه عبد الناصر بتاع التأميم الحلو ده.. شفت الزمن؟! الراجل ده برضه يبقى ابن أشرف مروان اللي رموه من البلكونة وقالوا انتحر. هههههه. انتحر. يعني كان لازم يروح لندن عشان ينتحر... هييه!! تعرف يا شيخ لو حد قالك إنه يعرف حاجة يبقى بيضحك عليك.. آه صدقني، قسمًا بعزة جلال الله يبقى بيضحك عليك.

وضعت الكوب بعد الرشفة الثانية فلم أجد الرجل. الله أكبر، صلِّ

على رسول الله. مممم... ولا يهمك يا ابو كيمو. ربنا يسوقك يا حسيني! ربنا يحرقك يا حسيني! نظرت إلى حذائي فناديت ماسح الأحذية الذي يجلس أمام صندوقه عند باب المقهى ومعه كرتونة أحضرها إليَّ لأضع فوقها قدميَّ الحافيتين. عندما رفعت رأسي بعد خلع الفردة الثانية رأيت رجلاً يرتدي قميصًا مقلمًا وبنطلونًا لا أعرف لونه حيث إني مصاب بعمى الألوان. قال بسرعة وهو يحرك محموله بين كفيه بطريقة دائرية وبلهجة أقرب للسرحان:

ـ مش عايزين يدوني أجازة بدون مرتب. طب ده يرضي مين؟ سمعت الوزير في العاشرة مساء من يومين وهو بيقول إنك تقدر تعيش بمية وثمانين جنيه في الشهر؟ آه وربنا قالها. طب إيه رأيك إني بعتّ لبريد الأهرام النهارده. لسه راجع م الأهرام حالاً. قلتله إني هديله ميتين جنيه لمدة أسبوع مش شهر ولو قضوه هسيبله شقتي رغم إنها إيجار قديم. مراتي يا شيخ بتشرب لبن في الشهر بمية وعشرين جنيه وأنا مواصلاتي للشغل بس بمية وعشرين جنيه. وعلى كده بقبض ميتين واربعين. على قد اللبن والمواصلات هههههه!! وآخرة ده كله يا شيخ مش عايزين يدوني أجازة، أصل سعيد ـ مديري في الشغل ـ عارف عيلتي وعارف ان ابن عمتي مسافر ليبيا أول الشهر وهيسسيبلي التاكسي بتاعه. كل شوية ينطلي ويقولّي عيب تشتغل على تاكسي، الوضع الاجتماعي، القرد المادي، يا أخي... أم الوضع الاجتماعي. لا مؤاخذة يا شيخ. بس تفتكر هوَّ ليه مش عايزني أشتغل على التاكسي؟ عشان الوضع الاجتماعي صحيح؟ أقولّك أنا.. عشان هوّ ما عندوش حد يسيبله تاكسي. مش عايزني أقبض أكتر منه. بس على مين. والله لو ما وافق على الأجازة لانقطع عن العمل. ويبقى يلف بقه الوضع الاجتماعي ويـ... ولا بلاش.

رن محموله فأخذه وخرج من المقهى. قمت بلا إرادية وتلفتُ حولي كأنما أتأكد من واقعية المكان أو كأني أستنجد بأحد أو أُشهد أحدًا أن هناك رجلين جلسا معي منذ قليل. لم أجد أحدًا يهتم فشعرت بالخوف. جلست وقد نظرت إليهم ثانية. وجدت المقهى متوسط المساحة وبه حوالي ثماني طاولات، كل واحدة بكرسيين قطيفة خضراء مقلمة بأسود أو بني أو أحمر. لا أحد يجلس مع أحد على الرغم من أن كل الكراسي مشغولة بالزبائن. حالتهم غريبة؛ فنصف الزبائن بالتمام والكمال يتحدث بلا انقطاع والنصف الآخر صامت. كل الذين يتكلمون كانوا مثل الرجل الذي يريد الأجازة، غير مهتمين بأن يسمعهم أحد.

(٤)

بعد قليل قام واحد تاركًا الآخر يتكلم وجلس على مقعد تركه صاحبه للتو. جلس على المقعد وتكلم مع الرجل الذي كان صامتًا. يا نهار أبيض. الله يحرقك يا حسيني. قمت واضعًا يدي في جيبي لأحاسب الجرسون على الشاي. سأنتظر مصطفى عند ناصية الشارع القريبة من شارع السودان. سمعت صوت امرأة من خلفي ـ حيث كنت جالسًا ـ تنادي الجرسون أن يحضر لها منفضة سجائر. كان صوتها غريبًا ولا أعرف وصفه لكنه نجح في جذبي للجلوس ثانية. عبد اللطيف يقول لي إني «حُرمجي»، لو رآها لتأكد له. امرأة جميلة بحق. وبمنتهى الرقة طلبت زبادي بالعسل والفواكه فانفجرت بالضحك، فقالت:

ـ أنا ليَّ ٣ صاحبات، بنشتغل سوا في الشهر العقاري. اتجوزت انا الأول وهما قعدوا شوية. واحدة جبتلها ابن عمي اللي بيشتغل في التنمية

الإدارية، وبعدها صاحبتي التانية اتجوزت واحد تعليمه متوسط وخدت أجازة بدون مرتب وسافرت معاه الجزائر. البت شيماء بقه هيّ اللي صعبت علينـا قوي، بت جميلة على فكرة يا شيخ ومؤدبة، بس قعدت لغاية ٣٤ سنة من غير جواز. المهم طالما ما ليش قرايب قلت أما اعرّفها على واحـد صـاحب جـوزي. عزمتهـا عندي في البيت عشـان تقابله. قعدنا في البلكونة نشرب الشاي ونشوفه وهو داخل. هيّ يا شيخ قعدت عندنا بتاع ربع ساعة والواد وهوّ بيعدي الرصيف عشان يدخل العمارة قوم أوتوبيس أخضر من الكبار دول هفه، طبعًا جوزي نزل جري وهوّ بيصوت والبت أغمى عليها. رحت أجيب حاجة أفوقها ورجعت لقيت شيماء دي خلصانة خالص ومش عايزة تفوق. قول قعدت نص ساعة لغاية ما عرفت انها ماتت.السر الإلهي طلع. بيتهيألي يا شـيخ انها مـاتت م الزعل. آه، زعلت على حالها، حست إنها نحـس أو الدنيا مديالها ضهـرها. الله يجازي بقه اللي كان السـبب، مش هيـورد على جنـة. صحيح يا شـيخ... هو لما ربنا يدخلها الجنة ان شاء الله هيجوزها لحد ولا هتفضل لوحدهـا برضه؟ أنا سمعت إنهم بيتجوزوا الرجالة اللي برضه ماتوا من غير ستات.

أحضر الرجل حذائي، كنت نادمًا على مجيئي هنا وشاعرًا أن الهواء انسحب من المقهى ومن صدري. رأيتها مثل الشبح وهي تنسحب وتحاسب الرجل على الزبادي وتغادر المكان. الله يخرب بيتكم. من أين أتيتم؟ كان المقهى بالنسبة لي خرم إبرة. ثم جاءني خاطر منطقي. سيخرج إبراهيم نصر الآن من وراء النصبة، من قميص بدوي الضخم الجالس خلف المارك. سيقول لي جملته الشهيرة: لو عايز تزيع قول زيع. انتظرت نصف دقيقة فلم يخرج. صرخت وأنا جالس:

ـ اخرج يا ابراهيم.

انتبه إليّ الجالسون بدهشة فشعرت بقليل من الضيق لأن إبراهيم نصر سيخرج حالاً ويُضحك عليّ الجميع. وقفت عند باب المقهى ظهري للشارع ووجهي للداخل:

ـ خلاص يا ابراهيم يا نصر كشفتها.

سمعت الحسيني من خلفي ضاحكًا وواضعًا كفه اليمنى على كتفي:

ـ يا عم كمال، هو انا كل ما اتأخر عليك ألاقيك بتصرخ، مش عيب؟

التفت إليه متوترًا ومتضايقًا:

ـ معلش يا مصطفى خش جوه وقول لابراهيم نصر يطلع عشان اتخنقت.

لم يتحرك الحسيني وأعتقد أن عقدة الذنب تعاظمت داخله لأنه يتركني في انتظاره كثيرًا، فقال:

ـ معلش حصل خير.

ـ يا عم خش قول لابراهيم يطلع.

ـ إنت بتعيط ليه؟

ـ يا عم ارحمني، ما بعيطش.

كانت دمعات بسيطة انحدرت دون وعي مني ولم أنتبه إليها.

ـ همّ عملولك إيه؟

ـ ما فيش حاجة.. وانا ما بعيطش.

استوقف مصطفى الجرسون وقال له بخشونة وعدائية وهو يمسكه من طرف كمه:

ـ هوّ إيه اللي حصل؟

قال الرجل بنفاد صبر، وهو يضع مشروبًا أمام رجل يجلس بالقرب من الباب:

ـ ما تسأله.. عمّال يصرخ باينّه عنده حاجة.

ثم التفت إليَّ ووضع كفه على كتفي كأنه ينصح:

ـ بص يا شيخ من غير زعل... اللي مش قد القعاد على القهاوي ما يقعدش..

ستار نوفي

أكتوبر فعلاً مدينة كبيرة لدرجة إني لما أحب أتقابل أنا وابو كمال نحدد منطقة محايدة؛ لأن المسافة بينّا من الحي ١١ للحي الخامس تعدي النص ساعة بالعربية النص نقل المتقفلة صندوق اللي وعد المحافظ بعد أكتوبر ما أصبحت محافظة إنه سيستبدلها بمواصلات آدمية، فلذلك نادرًا ما نتقابل في أكتوبر. ولكنها الضرورة؛ فعم بهاء طاهر الروائي الجميل أخذ جائزة الرواية العالمية البوكر ولازم نحتفل به بمجرد رجوعه مصر. اخترنا المنطقه المحايدة وهي منطقة «كان كان» في الحي ١٢ لأنها العاصمة الشعبية لأكتوبر وماكيت مصغر لإمبابة العظمى ومليئة بالمقاهي.

في السادسة كنا هناك. وقفنا وسط المكان نعاينه لنختار مقهى من تلك المقاهي المفتوحة في الأدوار الأرضية ـ التي كانت شققًا سكنية وفتحوا الغرف على بعضها وعملوها دكانة ـ المقاهي في كان كان تعتمد على فكرة قديمة كنت قد رأيتها آخر مرة في أولى ثانوي على مقهى في شارع الغريب في ميت عقبة، وهي أن تشغل فيلم فيديو (الذي تحول الآن إلى DVD) لفان دام أو جاكي شان أو سيلفستر، وتكون الفرجة بثمن والمشروب بثمن. تقريبًا كانت كل المقاهي في كان كان هكذا، ولكن ما يميز مقهى شرقاوي هو أن التليفزيون خارج المقهى ووجهه للداخل والكراسي على الرصيف

المتسع وجزء صغير منها في الداخل، فكان المقهى شبه فارغ. جلسنا إلى آخر طاولة لنبتعد شيئًا ما عن الصوت وعن الناس المتنحة للتليفزيون وكأنه اختراع حديث لم يروه من قبل. وضعت التليفون على الطقطوقة، ثم سحبت كرسيًا وضعت عليه الشنطة التي فتحتها لأخرج ورقًا أبيض وقلمين ومددت يدي أناول أبو كمال فامتعض وقال لي:

ـ ما بلاش ورق يا حسيني عشان نقضي الحفلة على خير. أنا بتشائم من الشغل على ورق، ما فيش حاجة جت من وراه.

ـ يا عم ما تقلقش واتباشر خير. إحنا عايزين نكسر الفكرة دي.. مش معنى إن المسرح وقع الحفلة اللي فاتت يبقى خلاص الورق نحس.

ـ ورجل الأعمال اللي اتمسك ليلة ما وافق على مشروعنا اللي فات، وباظت الشغلانة؟

ـ لا إله إلا الله.. ده كان موضوع ضرايب.

ـ طب والاربع كتب اللي اتحرقوا في المطبعة؟

وضعت الورق على الطقطوقة ورجعت بضهري وبدأت أقلق على عم بهاء:

ـ يا عم دي صدفة.. اخلص وخلينا نبدأ وان شاء الله خير.. اطلبلنا اتنين شاي بس واهدا.

القهوجي عيل ومتخفي في هدوم أخوه الكبير. هدومه ومشيته مايعين لا يليقون أبدًا بإمبابة العظمى، وقف أمامنا معووجًا وقال:

ـ صباح الفل.. أؤمر يا باااشا.

فطلبنا الشاي بالنعناع بتاع كل مصيبة وربنا يستر. وضع الشاي أمامنا

وتحرك ليجلس على كرسي في الجانب وكأنه لا يعمل في المقهى. التفتنا عنه وانطلقنا في الكلام عن الجائزة ولجنة التحكيم ورواية واحة الغروب والحفل، وممكن تكون فين ونقترح الأماكن ومن يساعدنا ومن يدير الحفل، ونكتب أسماء المدعوّين، ونفكر في البرنامج والفقرات.. الحياة لطيفة وماشية حلاوة جدًّا، أرجع بظهري أهس خمسة فلقطت بعيني بوسة خطف كانت على حد نظري لأنجلينا جولي وبراديبت، والناس تكاد تلزق في الشاشة، قلت لابو كمال:

ـ هي الناس دي بتتفرج على فيديو ولا دش ولا حالتهم إيه؟ وفين فاندام؟ راح فين؟

التفت كمال للتليفزيون وقال:

ـ دي قناة «star movie» تلقاها وصلة دش.

وحوّل القهوجي الجالس القناة ليداري البوسة فنفخت الناس وتذمرت، وانتفض أحدهم بجسمه المترهل كالمقطورة القطعتين وشوَّح بكفه الغليظ في وجه القهوجي وفتح فمه وكأنه هيبلعه:

ـ إيسيييه يا برنس بتقلب ليه؟ هات ستار نوڤي يا عم.. اخلص.

بحركة لا إرادية رجَّع القهوجي القناة في صمت وجلس مكانه، وكانت البوسة عدت؛ فزمجر الرجل التريللا ونفخ من الغيظ، وعاد الوضع كما كان؛ فهو شيء طبيعي أراه في المقاهي كثيرًا حتى أني فعلته أكثر من مرة في ماتشات مصر أو بطولة أوربا أو كأس العالم حين يحول القهوجي في قنوات «art» من عصام الشوالي إلى عصام عبده في التعليق فأصرخ ويصرخ الجميع «حول يا عم الحاج حرام عليك احنا مش ناقصين». المهم هدأ الوضع، طلبنا ٢ شويبس وعدنا أنا وابو كمال للحفل ولاختيار المكان، رسينا على نقابة الصحفيين واتصلنا بنهى محمود صديقتنا لتساعدنا في

حجز المسرح وبدأنا في ترتيبات اليوم وعملنا عصف ذهني على أفكار للفقرات وأسماء المدعوّين ومين هيقدم الحفلة ونكتب حتى لا ننسى أحدًا وأنا أبتسم وأقول لكمال:

ـ شفت الورق مهم ازاي؟ مش تقولّي مسرح وقع ومش عارف إيه اتحرق.. إن شاء الله هتقضي المرة د...

وصحينا على هوجة مفزعة من الخلق اللي ناطين في التليفزيون فالتفتنا لقينا أنجلينا جولي والبرنس برادبيت في وضع غير قانوني بالمـرة ومن غير أي حاجة ولا حتى فردة شراب وعايشين في الوهم ولا هاممهم وآخر ألسطة، والراجل التريللا مثبت القهوجي وماسكه من دراعه عشان ما يحولش القناه تاني، ما هو معذور برضه دي أنجلينا جولي يا اخوانا.

قلنا عادي المشهد هيعدي بسرعة وخلاص، هيعدي.. هيعدي.. هيعدي.. هيعدي.. ما فيش. والناس خلاص هتغتصب الشاشة والراجل التريللا شد الريموت من القهوجي وجلس مستمتعًا. وفجأة صوت ساقية مصدية دخل المقهى ودخل ورا الصوت راجل شبَه فطوطة بس بجلابية، وسب ولعن بدون أي مقدمات وكأنه يعرف ما يحدث ويا ولاد... ويا ولاد..... وجرى على القهوجي ونط رزعه قلم من تحت لفوق لوح وشه وقال له بتأثر قوي زي يحيى شاهين:

ـ أنا أصلي سـايب خـروف في القهوة، إنت لو كنت راجل يا معـ... ما كنتش تشغل للناس الأفلام دي.

وشاط الكراسي برجليه وهو يطرد الناس ويزقهم:

ـ ياللا قفلنا يا اخويا شوفولكو مخروبة تانية تتمزجوا فيها.. ياللا.

حتى وصل بيده إلى صدر الرجل التريللا فزقه فأمسكه التريللا وشده من الجلابية وهو يعوي:

ـ سيب يا عم ستار نوفي.. أنا مش همشي من هنا (المشهد لا يزال مستمرًا واحنا عين مع فطوطة وعين مع أنجلينا).

الواد القهوجي مرة واحدة تحول إلى حالة هياج بصوته اللي بيصوصو زي صوت باباي قبل ما ياكل السبانخ، وماسورة شتايم انفجرت ويشد في الناس يزقهم داخل القهوة ويضرب في الرجل التريللا بإيديه ورجليه ويصرخ محاولا إخفاء المياعة:

ـ والله هقفل عليكو الدكانة وهأتّعكو.

وانا وابو كمال لسه مشدوهين. وضعت موبايلي في جيبي ولمينا ورقنا في الشنطة ولكن ما لحقناش نطلع بره لأن الواد القهوجي زق التريللا وواحد معاه شيفروليه دبابة إلى داخل المقهى وأغلق باب الدكانة عليهم بالفعل هو وفطوطة والتريللا والشيفروليه الدبابة والعبد لله وصاحبي العبد لله برضه أبو كمال. والواد القهوجي علق على جملة والله هقفل عليكو الدكانة وهأتعكو وهو يضرب بكل ما فيه هو وفطوطة في التريللا وصاحبه وهم يتركونهم يضربون ومتنَّحين لا يهتزون حتى، وكأنه ماتش مصارعة حرة متفقين عليه مع بعض حتى هدأ فطوطة والواد القهوجي الهائج حين أحسوا أنهم لا يهتزون من الضرب، وصرخ الرجل التريللا وكأنها إشارة البداية لصاحبه الشيفروليه الدبابة كل واحد مسك واحد ونفضوهم، كان ابو كمال مصمم يستخبى في التلاجة وأنا بقوله بلاش لتتكهرب، وانا كنت عايز أستخبى ورا النصبة وهوَّ يقولي بلاش ليدغدغوا عليك الشيش. اتكومنا تحت الطاولة نسمع صوت البونيات والشلاليت وفرقعة الأقلام على وشوشهم، حتى رفع التريللا الكرسي ـ اللي كان تقريبًا مخبينا عنهم فأخد باله منا ـ وكسره على فطوطة والقهوجي العبيط فسقطوا على الأرض منتهيين. كان سيتحرك يفتح الباب ثم تذكرنا مع الأسف فرجع ناحيتنا وصرخ فينا وكأنه خرج من مصباح:

ـ اقفو اااااااا..

قمنا بهدوء وكل تفكيري في مين فينا أنا وابو كمال هيعيش عشان يحتفل بعم بهاء.

ـ انننتتتووواا تبعهم؟

صرخنا في نفس واحد:

ـ لا والله يا عم.

كان صاحبه الدبابة فتح الباب فصرخ:

ـ طب اخفوا من هنا ياللا.

قلت بصوت لا يكاد يخرج:

ـ لو سمحت ممكن آخد الشنطة.. بعد إذنـ...

تحرك ناحيتنا وهو يجز على سنانه فجرينا من أمامه، كل واحد في اتجاه ونحن نصرخ:

ـ يلعن أم الورق وأم الشغل على الورق.

يحيى بياكل صحابه

ومن لم يرَ يحيى فقد فاته خير كثير. أنا والحسيني ـ لا بد أنه الحسيني ـ من غيره يتمرمط معي في كل المقاهي المتاحة وجميع المواصلات الممكنة. كان معي ونحن نستكشف مقهى جديدًا يسهر إلى الصباح أو على أقل تقدير يسهر إلى ما بعد الثانية بعد منتصف الليل. وسان سوسيه تغلق في الواحدة، والمندرة لو بتسهر ليوم القيامة لن نقربها. مقاهي شارع المحطة بعيدة ونحن نريد شيئًا في الإطار (الإطار: مصطلح حُسينيّ يعني أن يكون قريبًا) ربما سأفاجئ نفسي وأفرد مساحة ضخمة لمصطلحات الحسيني، مثل: بيبكبك. (والبكبكة تعني...) لأ مش وقته خلينا في يحيى. يحيى اكتشاف حقيقي وديناصور خارق للعادة. كنا نتسكع بحثًا عن مقهى سهران كما قلت ووجدنا مقهى في مدخل السوق. زحام رهيييييب ودوشة عظيمة وباستمرار لا توجد كراسي. وعندما زرناها كذا مرة اكتشفنا أن الوقت المثالي يكون بعد الثانية عندما تكون الرِّجل هدأت ولا يتبقى إلا حوالي مائة وأحد عشر شخصًا تقريبًا. نأخذ كرسيين ونجلس عند محل أغلق أبوابه ويبعد عن المقهى مسافة خمس عشرة شيشة تفاح

وثلاث مناضد موديل خرط الندى. وجدنا في جلستنا كل الناس الحلوة التي كنا نتمنى لقياها من زمن طويل: الحاج جنجل أبو شفطورة والدكش والدعكي وعربي سخصية، كما التقينا بالأسطى أونكل عزت وعلى بوند واسماعين بوند وجيمس بوند بعد أن فتح ربنا عليه وعاد من هوليود بعد فيلم ٣٠ يوم في السجن ليشارك في نهضة السينما المصرية الشهيرة في ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧ ... المهم الحبايب كلهم هناك، حتى سوكارنو وموسوليني بعدما قضيا سهرة رائعة في شقة سرحان عبد البصير. لكن كل هؤلاء كوم والحاجة فضة المعداوي التي تروح وتجيء أمامنا هي وبناتها مفرغة على أسماعنا الحاجات الفُللي، إنهن يقضين أوقاتًا مفرحة طوال اليوم في السوق وهذا وقت مناقشتها والتخفف من أعبائها ليذهبوا غدًا إلى السوق وهن فرِش ـ أي منتعشات ـ... الحاجة فضة وجنجل وموسوليني والدعكي وغيرهم من رواد المقهى لا يساوون شيئًا أمام طلعة يحيى. ومن لم يرَ يحيى فقد فاته خير كثير. أولاً أنت لا تراه. الأمر ليس سهلاً. لا ينبغي لأي شخص أن يرى يحيى وإلا لصار الأمر سداحًا مداحًا كما قال أحمد بهاء الدين للسادات(*) تعليقًا على الانفتاح الاقتصادي. يجب ألا ترى يحيى قبل أن تسمعه أولاً ثم تُحدد لنفسك لا لسكرتيره ما إذا كنت تود رؤيته بالفعل أم ستكتفي باستماعه. يحيى ثروة قومية للمقهى وللجيزة ولا ينبغي أن تشغله عن طابق الدومينو مع أصحابه لأي سبب كان. المقهى تنتمي للسيستم الثاني. فالمقاهي عندي والحسيني نوعان أو سيستمان: الأول سيستم اسمه: «قبل ما الزبون يطول»، وهو أنك بمجرد جلوسك تجد القهوجى في ديلك يسألك عن طلبك وفي هذا إشارة لا تخفى على أحد بأنك لابد أن تغادر سريعًا. والسيستم الثاني اسمه: «قبل ما الزبون

(*) راجع فيلم أيام السادات .طبعة ميلودي تتحدى الملل.

يتشل»، وهو عكس الأولاني بالمفهومية كده. قهوة يحيى في آخر قائمة قبل ما الزبون يتشل لدرجة أنك تذهب بنفسك للنصبة لتطلب مشاريبك ولا يأتيك شيئًا. الغريب أننا نذهب كثيرًا وفي كل مرة نجد قهوجيًّا مختلفًا، وكلهم يشتركون في نفس الفضيلة. في اعتقادنا ونحن نتباحث هذا الأمر المهم أن القهوجي ـ إذا كان لديهم من يحمل هذا المنصب ـ يا إما بيلعب جوه دومينو مع الزبائن أو دائم الديلفيري للمحلات المجاورة وأصحاب الفرش في السوق ولأصحاب وربما لرواد المقاهي الأخرى إكرامًا ليحيى. يحيى ضخم الجثة وعريض جدًّا ما شاء الله وطيب وصوته كالهرم الأكبر لو نطق. لم أسمعه من قبل منخفض الصوت ولا أعرف هؤلاء النجوم الذين يلعبون معه الدومينو إذا كانوا مجبرين أم ممتنين لأن يحيى اختارهم دون غيرهم ليلاعبهم. إذا كان يحيى فائزًا تسمع الآتي:

ـ يا يحيى همّ ٣٥ مش ٤٥.

ـ نعم يا ابن الـ... ويك ويك ويك همّ ٤٥.

ـ يا يحيى ازاي ما احنا لسه عادّين الورق.

ـ مش قد اللعب ما تلعبش يا ويك أمك.

وإذا كان يحيى متأخرًا تسمع الآتي:

ـ يا يحيى همّ ٧٠ مش ٢٣.

ـ ويك ويك ويك ويك.

ـ يا جدع انت حرام عليك.

ـ ويك ويك ويك ويك.

ـ طب والورق اللي احنا لسه عادّينه.

ـ حطه في ويكك.

عندما تسمع صوت يحيى معهم تشعر أن جريمة رهيييبة ستحدث الآن. أسأل مصطفى الحسيني: هوّ فيه إيه؟ فيجيبني بطلاقة: يحيى بياكل صحابه.

بعد قليل (ساعة تقريبًا) يأتي يحيى بالشاي والحلبة ويضعهما أمامنا.

أقول وقد ضممت ساقيّ احترامًا:

ـ يا خبر يا عم يحيى.. بتنزل الطلبات بنفسك.

ـ ولا يهمك يا باشمهندز.

وبعد أن ينصرف في زوبعة هادئة يسألني الحسيني بصدق:

ـ هو احنا طلبنا شاي وحلبة؟

أرد:

ـ لأ، طلبنا سحلب وكاكاو بحليب.

فاستفهم مندهشًا:

ـ طب ما قلتلوش ليه؟!

نسمع يحيى على بُعد يتحاور بهدوء الهرم الأكبر مع شلة من الصعايدة حول شغلانة ما.

فأقول للحسيني:

ـ روح قوله إن دي مش المشاريب بتاعتنا.

نسمع الصوت الحاني ليحيى وخبطه على الكرسي الخشب الفاضي الموجود إلى جواره. فيقول:

ـ لأ، خلاص يا ابو كمال.. مش مشكلة.

ننظر إلى المشاريب أمامنا. فيسألني:

ـ مين اللي هيشرب الشاي ومين الحلبة؟

أقول بعد حساب بسيط لتصرفاتي:

ـ استنى أما ييجي عمك يحيى ونسأله، أحسن أشرب الشاي وهو مِنَزِّلِّي الحلبة فيحس بالإهانة.

قهوة سلمى

لعنة الجامعة دائمًا ما تأخذ في وشها سنة أو سنتين أو أكثر بعد انتهاء الدراسة. تظل أيامها وذكرياتها وعلاقاتها تلاحق كل من حاول أن ينسى. لكن الوضع هنا مختلف، فلعنة كلية التجارة تظل تلاحق من تخرج منها حتى وإن مرت ٢٠ سنة، وأحيانًا حتى آخر العمر. فمن كان في كلية التجارة فله مني السلام في الحياة وفي الممات.

أنا وحسام كنا ساذجين فعلاً في أيام الجامعة (لم أكن أعرف أبو كمال ساعتها). لدرجة أننا حين كنا نحب أن نجلس على مقهى كنا ندخل بين السرايات، فجامعة القاهرة لا يجاورها غير بين السرايات. ولكن هذا ليس مبررًا كافيًا لما كنا نفعل في أنفسنا، كان يكفي لنا أن ندخل هذه المنطقة حين نشتري الكتب المصورة بنصف الثمن أو ورق المحاضرات أو ورق الدرس أو مراجعات ليلة الامتحان، كان يكفي لنا أن ندخل المكتبات مثل الصقر وسلمى ونوبل ومصراوي وزويل كأي طالبين وباحترامنا. كنا نجلس إلى مقهى أمام زيروكس في شارع المرور، وهو مقهى على الشارع، أو على مقهى داخل حارة المكتبات أمام مكتبة سلمى تحديدًا، نجلس هناك حين نذهب لنشتري مَلازم مراجعة الامتحان؛ لأن الوقت

يطول في الانتظار وسط مئات الطلبة مثلنا في انتظار الملزمة الحلزونية المتوضبة اللي مطبوع عليها شفرة حمرا باسم سلمى عشان ما تتصورش (اللي هيّ منقولة من كتب التطبيقات أساسًا). المهم اتنيلنا أنا والأستاذ حسام صاحبي وجلسنا في المقهى أمام مكتبة سلمى، عندنا غدًا امتحان إدارة إنتاج وكل ما نعرفه عنها ـ وكما كان يقول لنا دكتور أحمد ـ أن الإدارة هي «أن المدير يدير» آه وعهد الله. فكان علينا أن ننتظر الملزمة واحنا ساكتين. مقهى سلمى كان يذكرنا كلما جلسنا عليه بقطار الصحافة وتحديدًا آخر عربية، المقهى كله عبارة عن حمام أو ما يعادله من مساحة، الجدران بالقيشاني الأبيض والنصبة من الطوب الحراري وفوقها لوح رخام، الكراسي في الشارع، أو ما يمكن أن نطلق عليه شارع، فهو مربع فارغ بين أربع بيوت يشبه المنور في العمارات الكبيرة وله مدخلان ضيقان، لذلك يسمونه حارة المكتبات.

منذ أن عرفت هذا المقهى وملقى أمامه سيارة حمراء بلونيز قديمة، تعتبر خردة، ليس بها زجاج، والكاوتشات مدفوسة في الأرض، لا أعرف لهذه السيارة أي صاحب.

بين السرايات كلما دخلتها أحس أنهم عيلة واحدة، كلهم يعرفون بعضهم وخصوصًا على ذاك المقهى، فالقهوجي الذي يشد بنطاله بحزام من القماش كلما مر ليضع مشاريب وقف دقيقة مع الأسطى حسن ودقيقة مع عماد ويناكف في أبو أيمن النوبي، الذي أراه كلما جلست هناك يجلس على نفس الكرسي وبنفس الشيشة وتقريبًا بنفس كوب الشاي.

حماصة القهوجي كما نادى عليه أبو أيمن كان يتعامل معنا بطريقة «هيّ ناقصة بلاوي»، فأنا وحسام فقط من الطلبة نجرؤ أن نجلس في مقهى سلمى ونطلب شيش مثلنا مثل عماد وأبو أيمن والأسطى حسن وغيرهم.

حتى أن حماصة من ضيقه منا ـ والذي يحاول أن يخفيه ـ كان يقول لنا حين ينزل الشيش وكأنه يضاحكنا:

ـ همّ التلامذة مش خايفين على صدرهم ولّا إيه؟

ويبتسم ابتسامة عريضة تجبرنا ألا نستعيد ذكريات الثانوي، وألا يقف حسام وهو يملس على شعره بعنجهيته المعهودة ويقول له: «تقريبًا كده الباشا بيستظرف نفسه وبيحاول يداعب الشعيرات.. ويستكمل أنه من المؤكد أمه بتخاف من الجوافة علشان كده بيهرج معانا».

حماصة في كل مرة كان يثبت جدارة في أن الصياعة تاريخ مسلح بالنجاح وأننا فعلاً تلامذة، ولا أعرف حتى هذه اللحظة ما الذي كان يدفعنا أن نجلس بمقهى سلمى، إلا أننا تقريبًا كنا نحب أن نخنق على حماصة.

الساعة ٨,٣٠ ولم تأت المَلازم بعد. هل سنراجع فعلاً على مادة إدارة الإنتاج وكل ما بقي من الوقت أقل من ١٣ ساعة. فكرني مشهد انتظار الطلبة لخبر وصول الملازم بما أسمعه عن الرجل السري الذي ترسله شركة كوكاكولا الأم بأمريكا لكل دولة ومعه الخلطة السرية، والجميع في انتظاره بشنطته السوداء ونظارته السوداء وبدلته السوداء مثل الأفلام. وأنتظر أنا وحسام قدوم هذا البرنس الذي يحمل على كتفه مئات الملازم المتخلفة التي أصبحت تحدد مصيرنا، ولا نعرف سببًا لكل هذا التأخير إلا أن العيال بتوع المكتبات عندهم عقدة نقص ويحبون أن يستمتعوا بذُلنا وانتظارنا ليحسوا بأهميتهم القصوى. فاجأنا حماصة بسؤال يبدو لطيفًا:

ـ همّ حبايبنا جايين في وقت متأخر على القهوة يعني مش مواعيد المدرسة.. خير؟ مستنيين إيه؟

رد حسام بسماجة وهو يحاول أن يمنع نفسه عنه:

ـ حماصة.. ما تجيبلنا حجرين كمان.. وخد سكة كده عشان الهوا.

فابتسم حماصة ابتسامته العريضة وهو يستكمل:

ـ ده حبايبنا شكلهم وارمين خالص.. إنتو عندكو امتحان بكرة ولَّا إيه؟ أيوه أيوه.. إنتو مع التلامذة دول اللي مستنيين الملازم.. أيوه. طب ما كفاية عليكو حجر اقسموه سوا.. هع هع هع هع.

قلت لحسام بعد أن تحرك حماصة أن يهدأ ويتركه وشأنه:

ـ خلينا في اللي احنا فيه يا عم حسام.. مش ناقصة كمان خناق.

رد حسام وهو يستعيد هدوءه:

ـ على رأيك إحنا مش ناقصين شد أعصاب.. كفاية علينا الزفتة إدارة التمويل.

(تتا تا تااااااه.. إدارة تمويل؟؟ إدارة تمويل؟؟. تمويل إيه يا عم الحاج.. إنت جاي فين؟ ويتمتحن ازاي؟ تمويل؟ يخرب بيت مامتك إحنا عندنا إدارة إنتاج؟ هو انا جاي امتحن غلط ولا إيه؟ مين الواد ده؟).

قبل أن أستفهم من حسام أو أفهمه أو حتى أقول له كلمة من اللي بين الأقواس ده كله، دخل من الممر الضيق اثنان يحملان رزم ورق ملون وسط هياج من الطلبة، حتى وصلا أمام المقهى فألقوا بالملازم داخل السيارة البلونيز الحمرا ووقفا أمامها لحظات حتى دخل شخص ثالث يحمل رزمة كبيرة من الملازم أدخلها إلى المكتبة وكاد يموت في أيدي الطلبة وهو يسلم العهدة لأصحابه العاملين في المكتبة، واختفى من الحارة في لحظة، وبدأت عملية البيع داخل المكتبة التي تحولت إلى فرن عيش، الملزمة فيه بعشرة جنيهات، والشراء بقوة الدفع من الخلف والأمام والوسط. أنا وحسام لا زلنا مكاننا، تقريبًا نخاف على البرستيج الذي يصمم حماصة أن يمسح به القيشاني كل ٣ ثواني:

ـ همّ التلامذة مش هيزاحموا ولاَّ إيه؟.. ياللا عشان تلحقوا تناموا.

أمسكت بيد حسام حتى لا يقوم له ولم نلتفت له حتى.. وكأنه يكلم أحدًا غيرنا، وكنا قد شغلنا بشيئين أولهما: حالة الهياج الزائد داخل المكتبة. والثاني (وكان يشغلني أنا) كيف أقول لحسام أنه سيمتحن غدًا في إدارة الإنتاج وليس التمويل.

لحظات وخرج العاملون بالمكتبة جريًا من الحارة، وجرى الاثنان من أمام السيارة البلونيز الحمرا إلى داخل المقهى وجلسوا إلى جوارنا، وصرخوا في حماصة يطلبون شيش، تحرك حماصة ناحية النصبة ثم عاد وكأنه أحس بضيق الوقت فسحب الشيش من أمامنا وهو يقول:

ـ لا مؤاخذة يا حبايب. ووضعها أمامهما، ودخل من الممر الثاني ثلاثة شنبات تشبه شنبات رجال المباحث وبنفس قطعية الجسم والوش، دخلوا المكتبة وسط الطلبة ثم خرجوا ناحية السيارة يقلبون داخلها ويُخرجون منها الملازم، تحرك أحدهم إلى المقهى ينظر إلينا جميعًا دون كلام، ثم دخل المقهى ووقف أمام حماصة يسأله:

ـ العربيه الحمرا دي بتاعة مين؟

رد حماصة بهدوء:

ـ فيه حاجة يا باشا؟!

ـ مباحث المصنفات يا اخويا هيكون فيه إيه؟.. العربية بتاعة مين؟

يتلفت حماصة حوله ثم يرد بجدية شديدة وبصوت جهور (وكأنه لقي لقية):

ـ بتاعة البهوات دول (ويشير ناحيتنا).

إحنا تحت يد الرجل فلم يتحرك لنا:

ـ يا حلاوتكو.. وقاعدين وشيش وسايبين الخلق دي كلها في الشارع وملازم وورق وكتب متصورة.

(لما استوعبنا اننا بنلبس).

ـ عربية إيه؟ ده بيستهبل.. إحنا طلبة زي العيال دي ومستنيين نشتري الملزمة بتاعة المراجعة.. والله ما بتاعتنا والله.(وأخرجت البطاقة أنا وحسام بدون اتفاق فأخذهما ووضعهما في جيبه).

ـ أيوه أيوه عارف انكم تلامذة.. بس تعالوا نتكلم مع بعض شوية بره (ويشير لصاحبه) هات يا ابني الحاجات دي معاك. (ويشدنا للخارج) ياللا ياللا عشان الوقت.

ـ نيجي فين؟.. العربية بتاعة العيال اللي قاعدة جوه دي.. والله ما بتاعتنا!

(ويستجديه حسام بقرف): يا باشا أرجوك إحنا عندنا بكرة امتحان إدارة تمويل ومش ناقصين.

ـ ياللا مع الباشا بقه.. إنتو من ساعة ما فتحتوا المكتبة دي وانتو فقر وعاملين مشاكل (ده طبعًا حماصة بيكمل دوره وهو بيخبط على كتافنا).

رفع أحدهم رزمة ملازم ووضعها بين يدي حسام وساعده حماصة في وضع الرزمة الثانية بين يدي وهو يقول:

ـ شيل الحرز بتاعك انت وهوّ.

تحركنا ونحن ننظر باندهاش لحماصة وهو يتكلم من كل قلبه، وحسام يزيح يده من على كتفه بعنجهية ويخرج تليفونه، وأنا متنح لمنظر حماصة وهو يبتسم لآخر مرة ويقول:

ـ تلامذة صحيح.

وأقول مع نفسي:

ـ الله يحرقك يا دكتور أحمد.

وحسام يقول:

ـ الله يحرقك يا دكتور شوقي.

أقول لحسام وأنا لا أستطيع أن أراه:

ـ كلم ابوك.. كلمه يا بتاع إدارة التمويل يا عسل.

علي بابا والأربعين توك توك

أن تتخذ قرار بناء بيت لك كمثل أن تتخذ قرار الزواج. لا تستمع فيه إلى نصيحة من سبقوك ثم تندم حيث لا ينفع الندم، وعندما يسألك أحد عن أحوالك يجب أن تقول:

ـ الحمد لله يا راجل.. كده الواحد أحسن كتير.

كما يجب أن تكون مبتسمًا لئلا يشمت بك أحد وإن كان أقرب الناس إليك. لم ألتفت إذن كثيرًا لمبررات الحسيني العائلية حول وجوب بناء بيت عائلي في بني سويف ـ مسقط رأسه ـ واكتفيت بأن أعمل ما يمليه عليّ ضميري ودعوت له بالتوفيق.

٢,٠٠ ظهرًا ـ محافظة السادس من أكتوبر

اتصلت بالحسيني لأخبره أني مسافر إلى زاوية المصلوب. فقال لي:

ـ طيب ما تستنى نسافر سوا.. أنا مسافر عشان صبة السقف بكرة.

ـ أنا عندي مشوار في الجيزة هعمله وأركب من المنيب.. يناسبك نتقابل هناك الساعة ٦؟

ـ خلاص.. ٦ في المنيب.

٦,٠٠ ـ موقف السيارات بالمنيب

ـ أيوه يا ابني.. إنت فين؟

ـ إنت وصلت؟

ـ أيوه.. جاي ولّا أسافر أنا؟

ـ أنا نزلت من دقيقتين.. استناني.. أقل من نص ساعة إن شاء الله واكون عندك، ماشي؟

ـ هدوَّر على قهوة أستناك عليها، بس قبل ما توصل بخمس دقايق كلمني عشان اتحركلك. ماشي؟

أنهيت المكالمة ثم انتبهت إلى أن مكالمتنا كانت تنتهي كل جملة فيها بعلامة استفهام ولا توجد جملة واحدة تنتهي بنقطة. لم أفهم في وقتها ما الذي يعنيه هذا. زاوية المصلوب على بعد ساعة واحدة فقط من المنيب إذ إنها تابعة لمركز الواسطي القريب. اسمه سفر على أي حال، وأن أسافر مع الحسيني أحسن بالتأكيد من سفري وحيدًا. لا بأس إذن من انتظاره.

٦,٠٥ ـ خلف السكة الحديد بالمنيب

لم يكن الزحام غريبًا عليّ، إذ رأيته من قبل في ترعة السواحل وناهيا وفيصل وشبرا وعزبة النخل ودار السلام. كل المناطق المزدحمة متشابهة كأنها مكان واحد. زحام وتلوث وضوضاء لصناعة مزيج رائع من بشر ليست لديه أيّ رغبة في الحياة. صحيح أني اعتدت كل هذا ولكن ليس معنى ذلك أن أجلس إلى مقهى عند الطريق الرئيسي. يبدو الجلوس حينئذ أشبه بانتحار. وصلت إلى مقهى في أحد الشوارع الجانبية؛ مقهى عادية،

جدرانها مبلطة بالقيشاني الأبيض وفواصله بالقيشاني الأسود. عرض الشارع لا يسمح بمقاعد خارجية. كان المكان واسعًا وشبه خال فقلت لنفسي: هنا كويس.

ـ شيشة يا غالي؟

ـ لا يا زعيم.. شاي تقيل زيادة بالنعناع.

تجولت ببصري فوجدت لوحة كُتبت عليها تسعيرة المشروبات. ابتسمت عندما وجدت أن الشاي بثمانية قروش، فقال القهوجي واضعًا الشاي على الطقطوقة:

ـ الحاج مش عايز يشيلها.. سايبها تذكار لأيام زمان لما كانت الناس كويسة.. أنا مشفتهاش، بس هو اللي بيقول.

عندما أسمع أن أيام زمان أجمل والناس كانت ناس إلخ إلخ إلخ أتحسس مسدسي. أتذكر نجيب الريحاني في فيلم غزل البنات في الأربعينيات عندما قال لليلى مراد إن الناس الحلوة كانت زمان.. لا بد أنه قصد أول القرن العشرين أو آخر التاسع عشر، ولا بد أنه كان يسمع جده يقول نفس الكلام.. أي ناس يقصدون؟

٦,٢٥ ـ في المقهى أتذكر أيام زمان

بينما أنا غارق في فطوطة وشريهان وبيبو حبيب قلبي ونواعم وشمعدان، توقفت أربعة تكاتك أمام المقهى. توقفت دون صخب لينزل من ثلاثة منها حوالي خمسة عشر شابًا، بينما نزل من التوك توك الرابع توك توك منفصل، عرفت فما بعد أن اسمه عم مجدي.

٦,٥٠ - أتفرج في القهوة

- أيوه يا كمال.. معلش يا باشا.. قدامي ربع كده.. الطريق واقف.

- يا ابني خدها جري أنا كان زماني في العياط.

- معلش يا ريس.. دقايق وابقى عندك ان شاء الله.

كنت غير منتبه كثيرًا لتأخر الحسيني خمسين دقيقة عن موعده؛ لأني كنت أتابع القهوجي وصبي الشيش وهما في حالة طوارئ؛ حيث لا بد لهما من الإسراع بتنزيل قص وسلوم وشايات وحلبة وعناب.. كانوا قد احتلوا المكان تقريبًا لدرجة أنه لم يبق إلا مكانان أحتل أنا واحدًا والثاني لا يزال خاليًا. كانوا قد رفعوا الطقاطيق من بينهم ليفسحوا المجلسهم مجالاً أكبر، ووضعوا المشروبات أسفل المقاعد، وصنع دخان الشيش إحساسًا مرعبًا بأن السرطان جالس في المقعد المجاور.

كانت ملابسهم لا تختلف كثيرًا؛ فهي لا تتجاوز بنطلونات جينز مرسوم على أفخاذها صور وتيشيرتات رخيصة. شعورهم كذلك غارقة في الچل وبعضهم حالق زيرو، وأعتقد أن أعمارهم كانت بين العشرين والثلاثين. افتتح التوك توك:

- هنقضيها صمت؟ خلاص يا حمادة.. خُبُّؤه يرجعلك المصلحة وتبقى كده حطت نهايتها.

انتصب شاب رفييع جدًّا وقال:

- لا يا عم مجدي. هو أنا....؟ ما أنا لو كنت عايز أرجع المصلحة ما كنت رجعتها.. أنا جاي هنا عشان خاطرك. هريسة لما قالّي إن عم مجدي جاي جيت.

- أمَّال عايز إيه؟

ـ طالما دخلت فيها يا عمنا يبقى السلاح ييجي.

انتصب شاب آخر مرسوم على تيشيرته چيفارا وقال مشوحًا بيديه:

ـ أسلحة إيه؟ ما فيش أسلحة هتيجي.

قال واحد آخر:

ـ بص يا معلم.. طالما دخَّلت عم مجدي يبقى تبلع لسانك وتسمع لآخر الحوار.

نطق مجدي بهدوء:

ـ اعدل بقك يا هريسة لاعدلهولك.. ما كنتش عايزني أدَّخل؟

ـ لا يا معلم مش القصد.. بس طالما حضر كبير يبقى ما يصحش إحنا نتكلم.. ولَّا انا بتكلم غلط؟

استكنيص مجدي من رد هريسة فقال لخبؤه:

ـ ما قلنا تبلع لسانك يا خبؤه.

هريسة قال:

ـ ينفع يا معلم بعد ما حمادة تعب وخد المصلحة من الزبون يترصده خبؤه على ناصية شارعه؟ ويثبته بسلاح كمان؟

تدخل آخر:

ـ على فكرة بقه يا عم مجدي.. حمادة اداله المصلحة مش خوف.. بس عشان ما يعملش حوار مع ناصر، بس ده حوار قديم مش هنلوكه دلوقت.

تضايق مجدي:

ـ وله انت وهوّ انزلوا من على وداني.. حمادة.. المصلحة ترجع وتبقوا حبايب.

ـ لا يا عم مجدي.. أنا كده متأذي.

تدخل هريسة:

ـ إحنا بنتكلم في الأصول.. لما سلاح يترفع يبقى الحاجة تيجي والسلاح ييجي.

ـ ياد انت صح.. بس بقولك عشان خاطري انا.. ناصر لو عرف إن سلاح خبؤه اتاخد منه هتدخلوني أنا في حوارات معاه.. لسه أنا وهوّ متراضيين من يومين.

ـ طالما عامل دكر بقه يستحمل.

صرخ خبؤه:

ـ شفت يا عم مجدي؟ أنا ساكت عشان خاطرك.

أخرج مجدي من جيبه جهاز محمول نوكيا بكاميرتين، وأعطاه لحمادة:

ـ المصلحة أهه يا حمادة وكبّر أخوك الكبير.

١٥ ,٧ ـ لسه في القهوة والعدة في إيد مجدي وحمادة مش عايز يمد إيده

ـ السلاح ييجي.

ـ ما فيش أسلحة.

ـ السلاح ييجي.

ـ ما فيش أسلحة.

ـ السلاح ييجي.

٤٠, ٧ـ لسه متثبت في القهوة وعايز أعرف مصير السلاح

ـ يا عم مجدي إنت جاي عليَّ وخبؤه فتح عليَّ السلاح.

انتفض مجدي كمن لدغه عقرب ونظر لحمادة:

ـ جرحك؟

ـ لا يا ريس هيّ خابت؟ عليَّ الحرام من ديني كنت دبحت نفسي عليه.

أمسك به مجدي يقلبه ذات اليمين وذات الشمال ليتأكد من خلوه من الجروح، ثم سأل خبؤه:

ـ وريني دراعك.

ـ خلاص بقه يا معلم هديله المصلحة وكده تبقى قُضيت.

ـ وريني يا ابن الـ....

قلبه مجدي فوجد جرحًا فقال هريسة بسرعة:

ـ ده جرح قديم بتاع توفيق ف خناقة البت مروة.

تكهرب الجو فجأة. قام خبؤه واضعًا سلاحه في يده فقام هريسة وحمادة بينما وقف مجدي وصوته أعلى مما تخيلت:

ـ اقعد يا ابن.... ويا ابن.... و.... و....

جلسوا.. فقال لخبؤه:

ـ السلاح ما اتظفرش ليه يا ابن....؟

وقع خبؤه بين المطرقة والسندان.. عرف أن لا مفر ففتح قرن الغزال

وجرح بها ذراعه جرحًا معقولاً، ثم قفل القرن، ثم تناول المصلحة (المحمول) من يد مجدي وتقدم خطوتين لحمادة، وقال:

ـ خد يا زميلي عرقك والسلاح.. وحقك عليّ.

تسلم حمادة العدة والسلاح، ثم نظر لمجدي. وضع المحمول في جيبه ثم قال بمنتهى التأثر:

ـ وما يهونش عليّ يا شقيق العيش والملح.

ثم أخرج مطواته بسرعة وجرح بها ذراعه جرحًا معقولاً فاحتضنه خبؤه.

أعاد حمادة مطواة خبؤه له، وقال عاوجًا رقبته مع كل حرف ينطقه:

ـ خد سلاحك.. أنا برضك ما يرضينيش تنزل منطقتك من غيره.

ثم جلسوا أصدقاء حميمين، يتناجون في كيف ثبت حمادة شابًّا كان يسير في الشارع وأخذ منه محموله، وخبؤه يعتذر على قلة الأصل إلى أن رن محمولي. التفتوا إليّ ورأوني لأول مرة. صرخ بي التوك توك:

ـ إنت بتعمل إيه هنا؟

ابتسمت بدماثة وقلت:

ـ مستني مصطفى الحسيني.

قهوة الخلود

دائمًا ما أسأل نفسي عما يدفعني لأن أجلس إلى مقاهي مع أني حلفت ١٠٠ يمين من قبل ألا أجلس وألا أستمع إلى الحكايات وألا أرى ما يحدث، وفي كل مرة أحلف وأخلف وأذهب بقدمي وبكامل قواي العقلية إلى مقهى. أسأل فلا أجد لديّ إجابة واحدة حقيقية ـ بعيدًا عن كوني مضطرًا أحيانًا ـ غير أني أحب أن أروي لكم.

اليوم الأحد. كنت في حفل بحديقة الأزهر من الثامنة مساءً، وكلمني أبو كمال قبلها واتفقنا أن أقابله في السيدة زينب في الحادية عشرة بمقهى أمام مطعم أحباب السيدة كنا قد تعودنا اللقاء به. خرجت من منتصف الحفل وتوجهت للسيدة، لم أكن رائق المزاج، بلا أسباب واضحة، وصلت أمام المسجد قبل الموعد بكثير فطرأت برأسي فكرة أستغل بها فارق الوقت، هي أن أزور محمد حسين صديقي القديم وهو يسكن في شارع اسمه بركات قريب من المسجد، قلت أسلم عليه وأمشي سريعًا وصلت إلى شارع بركات الضيق بغير مثيل لدرجة أني أستعيب أن أقول عليه شارع، فهو صف من البلكونات مواجهة لظهر بيوت؛ أي أن الشارع صف بيوت واحد، وعرضه أقل من متر ونصف وكأنه لم يبن، بل وضع كما هو.

القصد.. وصلت بيت محمد حسين ووقفت أنادي عليه وصوتي يكاد يشبه البالونة المنفجرة في هذا الضيق، فخرجت أمه وأشارت بيدها إلى أول الشارع وكأنها تطردني، ثم قالت: محمد في القهوة اللى قدام، فتحركت وأنا حاسس إنها بتبعتني - فأنا لم ألمح مقاهي في الطريق - لكن قبل نهاية الشارع بقليل لمحت مدخلاً ضيقًا لا يتعدى نصف متر، فهمت أنه المقهى. جذبتني طريقة إنشائه في هذا المكان الضيق مع أن المقهى من الداخل متسع وعلى مساحة شقتين وبه ناس كثيرون، لا يمكن أن تتخيل وجود كل هذا العدد وأنت في الخارج، وكلهم تقريبًا يلعبون دومينو، تحركت في المقهى إلى آخره أبحث عن محمد فلم أجده، واكتشفت أني على ناصية شارع من الناحية الأخرى، جلست حيث وجدت اتساعًا بعد أن تأملت اليافطة البيضاء المعلقة بدوبارة مكتوب عليها «يا أهلا بالمعارك»، المقهى شكله أنتيكة.. بمعماره القديم والطاولات والكراسي وألوان الجدران الصفراء والصور الورقية الصغيرة المعلقة للرؤساء عبد الناصر و السادات ومبارك على الجدار أعلى النصبة، وحتى القهوجي الذي يرتدي زيًّا يشبه عمال محلات الكشري، قميص أبيض طويل بزراير كبيرة وطاقية حمراء مرتفعة من الوسط وبنطلون أسود وشبشب أخضر بصباع لم يتحرك نحوي حتى شاورت له فأتى سريعًا متحمسًا على غير توقعي، طلبت شاي بالنعناع وأكدت على السكر فشاور بإصبعه ناحية عينيه وهو يحاول أن يبتسم في وجهي وتحرك بنفس الحماس حتى أنني قلت في نفسي إن الشاي سيحضر أمامي في ٢٠ ثانية.

الجميع في المقهى يتكلمون والأصوات متداخلة إلا طاولة واحدة هي الأقرب لي، يجلس إليها ٥ أشخاص كلهم شباب في سن الثلاثين وأقل، شكلهم وجلستهم ذكّراني بفرق المسرح التي أراها في مقاهي وسط

البلد، كانوا صامتين تمامًا. يدخنـون ويشربون الشـاي وكأنهم ينتظرون شيئًا ما. تركت رأسي تلف مع كل ما يقال داخل المقهى عن الدش والدبش والجوهارسه ولحس الطابق والمناولة والقفلة وعم مرتضى الذي سيدفع حساب الشيش والشاي أبو حليب لأبو خالد وعصام وسيد بلاطة لأنه شال عشرتين سقع، وصوت وديع الصافي من روتانا زمان، وطرقعة الواد حسام بتاع الولعة بالماشة على مجمرة الفحم وهو يطوحها يمينًا وشمالاً من فوق رءوس الزبائن وشكله حالف يلبسها لواحد في وشه وطوال القعدة كنت أتمنى أن لا يكون أنا. وفجأة انطلق صوت جهور من شارع بركات ـ المدخل الأول للمقهى ـ ينادي على منصور (بترقيق السين مرة وتفخيمها مرة) ويسكت ويستكمل يا منصور يا منسور حتى هدأ تمامًا، وعاد الجميع كما كانوا على رزعة جوهاريك من أصابع سيد بلاطة، كانت فرقة المسرح الصامتة في هذه اللحظة قد فكوا الحداد وبدأوا في حوار عن واحد صاحبهم تقريبًا اسمه (حمقَّه)، الحوار كان هادئًا وحضاريًّا لدرجة أنه لم يتخلله إلا ٦ أو ٧ شتائم في حمقه فقط دون أي ذكر لأمه أو أي حد من طرفه (ويعود الصـوت من الخارج بنفس الطريقة: يا منصور.. يا منسور.. يا منصور ولم ينقطع لفترة حتى تعود الجميع فلم يعد يزعجهم)، وانتقلوا من سب حمقه إلى العربيات التي تركن أمام جامع أحمد بن طولون (لا أعرف كيف ومتي انتقل الحوار) ويتناوبون الكلام وكأنهم في بروفة:

ـ ما اعرفش البشر دي كلها اللي راكبة المرسيدس ام نص مليون بيشتغلوا إيه وبيعملوا إيه.. كل دي عربيات مرسيدس في البلد؟!

ـ يا عم دي حتى السيدة زينب مليانة مرسيدس!! مش معقول الفلوس دي كلها هنا!

ـ طب وعين شمس.. بص على عين شمس اللي ما كانش فيها حتة بلاستيك بقت متروسة عربيات.

ـ الواد عادل بتاع السوبر ماركت اللي عنده الفيات ٢٨.. تعرفوا إن الواد ده بقى بيبيع بيزة ونزِّل تلاجة هينكين أول امبارح واحنا قربنا على رمضان المـ.....

ـ يعني هيّ جت ع البيرة، ده انا رحت اعمل بدل فاقد للبطاقة من كام يوم، دفعت للأمين عشان يعملي محضر ضياع بطاقة، ودفعت للست بتاعة الشباك اللي بتاخد منك الورق وللراجل اللي لطعني صورة مقندلة طالع فيها زي المجرمين.. دي كوسة يابا.

ـ إنت عشان هفق.. ده انا عملتها قبل كده وما دفعتش إلا للأمين بس.. يا هفق.

(أنا لا زلت أنتظر القهوجي يجيب لي الشاي أبو نعناع، وكلما شاورت له ليفتكرني يشير لي بإصبعه ناحية عينيه ويغيب، وما اعرفش إيه اللي حصل للفرقة الصامته دي وكأنهم خدوا إشارة البدء وفتحوا موشحات ويتكلمون بدون ضحك وكأن ما يقولونه طبيعي).

ـ أنا هفق يا مـ...... ده انت ابوك لحد أول امبارحَ كان بيمشي في الشارع بالفانلة الحمّالات المكتوب عليها صنع في مصر يا مـ.....

ـ يا عم الراجل أبوه بيساعد الوطن مش زي ابوك اللي بييجي مصر في سبوع ولاد اختك.

ـ وطن إيه يا اسطى؟! ده أحمد نظيف طالع متقمع امبارح ويقولك إيه ااااا الشعب المصري غيرناضج سياسيًّا.. ما اعرفش الناس دي عايزة إيه!

ـ دي ناس مرستقة حالها يابا.. تعرفوا انا سمعت حتة حاجة ما لهاش حل..

(الجميع في نفس واحد):

ـ إيه؟

ـ تعرفوا الفراعنة بنوا الأهرام ازاي؟

ـ إزاي؟

ـ كانوا بيشربوا الزئبق الأحمر.. ده بتاع كده بيطلعوه من المومیا ممكن يخلي الإنسان يبقى زي الوحش ويعيش كتير وما يموتش بأمراض ويفضل سليم طول ما هو عايش.

(صوت المنادي على منصور.. منسور.. لا زال شغال وكأنه خلفية موسيقى جاز).

ـ يا عم ده الحجر الواحد من الهرم بيجي٣ متر.. يعني قد بيتكو.. شالوهم ازاي ورصوهم ازاي.

ـ العفاريت همّ اللي بنوه.. دول كانوا بيسخروا الجن.

ـ جن إيه يا اهطل.. كان وقع بعد اما ماتوا.. الجن كانوا قلبوه عشان ينتقموا.

(ويرجع اللي قالهم انه سمع «حتة حاجة» للكلام مرة تانية):

ـ أهه انا سمعت ان الرؤسا والوزرا والناس الأغنيا المقتدرة بيشتروا الزئبق الاحمر الجرام بمليون جنيه ويفضلوا بصحتهم لحد ما يموتوا من غير أمراض.

ـ حلاوة حلاوة.. طب ابقى قول لابوك عليه ده ياد بدل الفلنات والحاجات دي.

(يعلو صوت المنادي من الشارع ويغير طريقته في هياج وكأن حد رد عليه):

ـ فين الحاجة يا عم منسور؟

ـ (يرد منصور) حاجة إيه ياللا؟!

ـ العجينة.. ما انا سبتلك الفلوس في السَّبَت تقوم تدخل تنام وتسيبني في الشارع وقافل بوابة البيت كمان.

ـ شارع يا ابن الـ..... غور ياد من هنا ياه.

ـ فين يا عم منسور الحاجة، طب نزِّل الفلوس طيب مش عايز زفت عجينة.

ـ فلوس إيه ياد يلعن...... عارف لو نزلتلك هخلي وشك حتة صفيحة.

ـ يا منسور نزل الفلوس.. يعني كده.. ماشي نام يا عم منصور انا هعرف اجيب الفلوس.

(يسكت ولم يتحرك أحد من المقهى وتعود الفرقة التي لم تعد صامتة إلى الحوار الحضاري، ويشير لي أحدهم وكأنه كان ينتظر أن يسكت المنادي على منصور ليكلمني):

ـ احضرنا يا برنس.. لا مؤاخذة يعني على التطفل.

فقلت في قلق: لا ولا يهمك يا باشا.

فقال لي: طب اتفضل اقعد معانا خمسة.

فلزقت في الكرسي وقلت مرتبكًا:

ـ شكرًا بس انا مستني الشاي بتاعي.

ـ تعالى بس اتفضل (قالها بعشم زيادة وشاور للقهوجي مرة واحدة

فكان الشاي قدامي على ترابيزتهم في الـ ٢٠ ثانية اللي كنت متخيلهم من كتيبير دول، والقهوجي يشير لي بإصبعه ناحية عينيه ويبتسم).

قلت بعد أن جلست مرتابًا: أنا بس مش عايز أضايقكم.

قال أحدهم وهم مبتسمون جميعًا ويحاولون أن يمنعوا ضحكهم:

ـ ها.. الفراعنة بنوا الأهرامات ازاي؟

وبدأوا يعيدوا الكلام من أوله عن الجن والزئبق، وكل واحد يحاول أن يوصل كلامه قبل الآخر، ثم صمتوا ينظرون إليَّ وينتظرون الرد. فقلت منكمشًا:

ـ أعتقد انهم كانوا متقدمين في الهندسة.. يمكن كان فيه رافعة للحجارة.. بس ما بيتهيأليش موضوع الجن وما اعرفش حاجة عن الزئبق الاحمر ده.

قال أحدهم هامسًا لي:

ـ يعني الريس والوزرا مش واخدين الزئبق ده؟

فصمت ولم أرد للحظات ثم تحركت في مكاني قائلاً:

ـ إنتو فرقة مسرح من الجامعة ولا بتعملوا إيه بالظبط؟! وأمسكت موبايلي جيدًا.

فقال أحدهم: إحنا مستنيين حمقَّه.. تحب تستناه معانا؟ ده جايب معاه حتة عجينة انما إيه.. ملبن. يمكن ينوبك سنسون واهو كلنا زي بعضنا اخوات حبايب يعني.

فقلت وأنا أقوم من مكاني:

ـ لا شكرًا بس أصلي مضطر أمشي عشان واحد صاحبي مستنيني. (ومددت يدي لأسلم عليهم).

فانطلقوا في الغناء والضحك في صوت واحد:

ـ يا خاين الاشتراكية.. يا عديم المسئولية.

(ويدبون بأرجلهم على الأرض بجنون وهم يضحكون):

ـ يا خاين الاشتراكية.. يا عديم المسئولية.

وضعت يدي إلى جانبي وتحركت وأنا أترك رأسي معهم وهم لا زالوا يغنون ويضحكون.

أبناء مصر

منذ أن تزوج الحسيني وهو لا يبيت خارج بيته إلا في بيت عائلته أو عائلة زوجته! نموذج للزوج المستقيم. أقصى ما نحلم به أن يزور أحدنا الآخر في بيته ويرحل بعد منتصف الليل. في تلك الزيارات نقضي الوقت في مناقشة الأمور الأدبية والأحلام الكتابية التي تحتاج إلى أعمار وأقلام لكتابتها.

وبعد أن تزوج شريف مصطفى - أقدم أصدقائي - (ربما سأحكي عنه في كتاب منفصل!) وأنا أزعج زوجته جدًّا لأنها تضطر إلى البقاء ساهرة لزوم الشاي والكاكاو والفراخ لنستمتع لأقصى درجة بالبلاي ستيشن.

ومن المعروف أن الزيارات تكون أكثر للأشخاص ذوي الاهتمامات المشتركة؛ ولذلك فإنكم غالبًا ما تجدونني في شقة شريف!! أيوه شريف، مستغربين ليه؟ بنقعد نلعب بلاي ستيشن للساعة تمانية الصبح. مشكلتي الأساسية إنه مزعج جدًّا.. شريف، مش البلاي ستيشن. بيقعد ينادي على اللاعيبة طول ما هو قاعد. فجأه تلاقي شيفشينكو بيجري بالكورة وشريف معجب بيه قوي وبيقول:

- شيفشينكو شيفشينكو شيفشينكو شيفشينكو شيفشينكو شيفشينكو شيفشينكو شيفشينكو شيفشينكو....

وهكذا مع دروجبا وكريستيانو رونالدو ولامبارد ورونالدينيو، ده غير إن كل ما ينفذ لعبة حلوة يفضل يعيد فيها ومن جميع الزوايا، ويفضل يضحك ويقلد عصام الشوالي.

وعندما أعلق على تفصيلة في اللعب أجده يقول بابتسامته الودودة:

ـ على فكرة يا كيمو.. إنت في بيتي.

* * *

طردتني زوجة البواب برفق بعد نداء متكرر على الشيخ شريف في عز الليل. قالت:

ـ معلش يا شيخ.. الناس نايمة والشيخ شريف مش هنا.

انفعلت وعلى رأي الحسيني هجت ومجت وازاي شريف يديني معاد ويمشي؟! صرخت به في المحمول:

ـ إيه يا حيلتها.. إنت فين؟

ـ عند حمايا.

ـ حماك؟ مش المفروض فيه معاد؟؟

قاللي النهارده إيه؟ قلت النهارده السبت. من خجلي تهت ودبت. ما لقيتش عندي رد. معادنا كان الحد. وبعد أن كنت في وسط موجة غضب وبعد أن رمالي نجمة وطوق، قال:

ـ اتلقحي يا سوسن في أي حتة وهجيلك بعد نص ساعة إن شاء الله.

سألت زوجة البواب:

ـ فيه هنا قهوة قريبة؟

تدخل عابر سمعني:

ـ على الناصية هتلاقي قهوة أبناء مصر.

* * *

وأنا على أبناء مصر أتأملها بطاولاتها المربعة البيضاء المملة، وجدت الحسيني يتصل بي:

ـ أيا كمال.. عندي خبر وحش!

ـ خير؟

ـ ديوان الشعر بتاعنا اللي في المطبعة «وِلع».. أنا هروح بعد ربع ساعة وأشوف إيه اللي ممكن يتعمل.

أنهينا المكالمة واستعوضت ربنا في الأربع تلاف جنيه، خصوصًا أني أعلم أن طيبة وأخلاق الحسيني ستجبره على مسامحة صاحب المطبعة على هذه الوليعة التي أصابتنا. كثيرًا ما يشعرني الحسيني أني وغد لئيم. كانت رأسي بين يدي زي اللي روح ما لقاش بيتهم. أما القهوة فكانت تشغل «أغنية أديك تقول ما خدتش» لأحمد عدوية. أتى القهوجي واضعًا أمامي ينسون لم أطلبه، وقال:

ـ خطوة عزيزة يا شيخ.

إحساس مهم إن القعدة دي مش هتكمل على خير والرجل يقول:

ـ ما تقلقش.. الشيخ شريف زمانه جاي.

ـ وانت عرفت منين إني مستنيه؟

ـ ودي محتاجة مفهومية.. كل دول مستنينه.

معلوماتي الأخيرة عن شريف أنه لم يصل بعد إلى مرحلة الإفتاء وأن يكون له مريدون. كل دووووول يا شريف. ثم مستحيل يكون مُواعِدهُم لأنه على موعد معي للبلاي ستيشن. قال:

ـ هو حضرتك هتبيع ولا لسه هتفك؟

ـ أفندم؟

لم يجد لديه الوقت ليوضح إذ انصرف ليلبي طلبات زبائن أخرى. اقترب مني أخ فاضل وجلس إلى جواري وقال فورًا:

ـ قول لا إله إلا الله.

ـ لا إله إلا الله.

ـ عندي حد يخلصلك مصلحتك، وزيه زي الشيخ شريف وهيطلّع برضه خمسة في المائة عشان ربنا يبارك.

ـ لا أنا الحقيقة مستني الشيخ شريف عشان عايزه في مسألة شخصية.

ـ شفت يا شيخ.. همّ الشيوخ كده.. ما يشتغلوش غير مع شيوخ زيهم.. بقه أنا مآمنلك وانت مخوني.. بكلمك بصريح العُبارة من غير ما أسأل عنك ويمكن تكون مباحث ومع ذلك داخل معاك بعشم.

ـ مباحث؟

أتى القهوجي الذي قال إن اسمه إبراهيم:

ـ ها يا بيه.. لسه مقلق؟

ـ لا يا جماعة.. واضح إن فيه سوء تفاهم.

ـ يا بيه ما فيش سوء تفاهم.. أنا قاريك.. إنت مقلق. قول بس.. فرعوني ولا روماني ولا قبطي ولا إسلامي؟

بدأت أفهم فصرخت بشويش:

ـ إنتو فاكريني تاجر آثار؟

ـ لا يا باشا.. الوشوش بتبان ولو كنت تاجر ما كنتش جيت لشيخ شريف. أصل الشيخ بيفك الرَصَد ويطلع اللِقيا بس. إحنا عايزين نجيب لقمة عيش لجماعة حبايبنا برضه. أصل من ساعة شيخ شريف ما اشتغل وما فيش حد بياكل جمبه.. هيّ الأرزاق بتاعة ربنا صحيح بس الرحمة حلوة برضك.

ـ من إمتى وهو بيشتغل؟

ـ مش من كتير. من ساعة ما اتجوز. بس ربك والحق نضيف ف شغله وبيطلع الخمسة في المايه قبل ما حد يمد إيده.

ـ خمسة في المايه؟

ـ آه ده حق ربنا. إوعى تبخل.. طلع خمسة في المايه بتاعة اللقيا عشان ربنا يباركلك.

انزويت قليلاً فانصرفا عني وقد فهما أنني أفكر.. كنت في الحقيقة مصعوقًا مما أسمع، خصوصًا أني منذ أن انتقلت إلى أكتوبر وأنا أرى شريف بصعوبة شديدة.. معقولة يا شريف؟ معقولة بتاجر في الآثار؟ ليه كده بس؟ هيّ ناقصاك انت راخر.. وجدت الحسيني يتصل فتحضرت لمصيبة جديدة.

ـ أيا كمال.. الكتاب ما ولعش الحمد لله.

ـ الحمد لله.. أمال إيه اللي حصل؟

ـ المتن سليم والزنكات والأفلام.. بس ورق الغلاف هو اللي ولع.

ـ الحمد لله إنها جت على قد كده.

ـ الحمد لله، بس أنا بتصل عشان حاجة تانية.

ـ خير.

ـ الأربع كتب اللي كانوا في المطبعة ومستنيين النقل.

ـ ما لهم؟

ـ فاكر الواد حسام اللي شغال معاهم في المطبعة؟

ـ آه.

ـ اتخانق مع اسطى عطا ونقل ٨ كتب، منهم الأربعة بتوعنا.

ـ نقلهم فين؟

ـ ما حدش يعرف.. وساب البيت وابوه ما يعرفش راح فين.

ـ إيه التهريج ده؟ حفل التوقيع التلات الجاي!

ـ ما اعرفش بقه.. والمطبعة بيقولوا إن دي مش أول مرة.. وما حدش عارف ياخد مع أبوه لا حق ولا باطل.. بيقولوا الواد مغلبه.

ـ وبعدين؟

ـ ما اعرفش.. اهدى كده وفكر في حل لغاية بكره الضهر.

* * *

اقترب مني زميل فاضل من الطاولة المجاورة:

ـ جاي تتطلع ولا تبيع؟

ربكم والحق، قلت أتسلى:

ـ لا ده ولا ده.. أصل عندي ٨ حتت واد مقلبهم وهربان بيهم، منهم أربع حتت يخصوني.

ـ يا خبر.. ٨ حتت مرة واحدة!

ـ نصيب بقه.. الواد اتخانق مع الشيخ بتاعه وهرب بيهم.. المشكلة إن الناس مستنية الأربع حتت دول يوم التلات الجاي.

ـ مش انت جاي لشيخ شريف؟

ـ آه.. قلت يمكن يلاقيلي حل.

ـ بس الشيخ شريف ما لوش دعوة بالحاجات دي، ده بيطلع وبس.

ـ هسأله وهو يقرر.

جاء زميل فاضل آخر، ابتسم وسأل عن الحكاية، وبعد لحظات وجدت أربعة زملاء أفاضل حولي يتناقشون في كيفية إعادة الحتت.

ـ همّ فرعوني ولا إسلامي؟

ـ اتنين سرد واتنين تفعيلة.

ـ نعم؟؟؟؟

ـ لا لا ما تخدوش في بالكم.. همّ أربعة وخلاص.

تدخل زميل خامس كان معدي وقال يشارك:

ـ أنا عندي حل.

ـ الحقني.

هز رأسه وقال بحسم وجدية:

ـ اعمل زي الحكومة.

ـ إزاي؟

قال قاطعًا الشورت في البسين:

ـ مش لما الحكومة بتعوز تقبض على واد هربان بيمسكوا حد من أهله عشان يسلم نفسه؟

ـ آه (كل الناس اللي قاعدين).

ـ إنت كمان اعمل كده، هاتصلك باتنين عتاولة دلوقت.. مش هقولهم رايحين لإيه عشان ما يطمعوش.. هتدي لكل واحد بتاع متين جنيه يخطفولك أبوه ولا أخوه.. هتلاقيه بيدور عليك.

قلبتها في دماغي مفكرًا في عناوين الصحف وبرامج التوك شو ومجموعات الفيس بوك:

«القبض على روائي بتهمة البلطجة».

«خلاص البلد باظت.. كاتب مغمور يحبس أهالي مساكين ويجبرهم على خلع ملابـ...». لا لا مش الخبر ده.

«هيَّ دي مصر يا عبلة».

«ياللا نجمع ١٠٠٠٠٠٠ توقيع ضد كمال البلطجي».

ـ ها يا شيخ.. قلت إيه؟

انتزعني صراخ الزملاء الأفاضل من المصير المتوقع لأقول متوترًا وقد غلبتني الفكرة خوفًا من فضيحتنا الثلاثاء القادم..

ـ بس مش عايز شوشرة.

ـ مين هيشوشر يا عم الشيخ؟ إنت عايز تحبسنا؟ دي آثار.

قال كلمة آثار هذه بلهجة مرتفعة فأفزعني فقلت بسرعة:

ـ خلاص خلاص.. اتصل بالناس.

اتصل أمامي بواحد اسمه كارينجا وأمنه أن يحضر خبؤه (هو أنا سمعت الاسم ده فين قبل كده) ويقابلوني بعد ساعة أمام البرج الأولاني من أبراج ساويرس من ناحية التحرير. اتصلت بالحسيني وقلت له أن ينتظرني في نفس المكان.. ثم اتصلت بصاحب المطبعة ناصحًا له لآآآآآخر مرة قبل أن أقوم بعمليتي الوقائية للحرب على الإرهاب ومؤكدًا عليه أن يفعل أقصى ما بوسعه لدى والد حسام لإعادة الأمانة.

لحظات وأكد عليّ الجميع بضرورة الهدوء لأن الحاجات دي عايزة الراجل الراسي، خصوصًا إن الحكومة مفتحة عنيها على اللي زينا.. كمان دول ناس ما يعرفوش ربنا (قصده على الحكومة).. ليه بقه يا زميل؟

ـ إزاي يحرموا بيع الآثار؟ واحد ولقى حاجة تحت بيته، همّ ما لهم؟ كمان لو عملت وطني وبلغت بيصادروا أرضك وبيتك.. مين بقه هيبلغ؟ ولا ١٠٪ ولا حتى مكافأة.. يعني لو لقيت شنطة فلوس أحلى من شنطة آثار.. ثم أنا سألت شيوخ كتير وقالولي حلالن حلالن حلال.. كمان دي تماثيل قديمة مش هيعملوا بيها حاجة وهيرموها في المخازن.

أمن إبراهيم القهوجي على كلامه وهو يقول لي:

ـ ما هي حكومتنا لو جامدة وبتفكر ما كانش حد عمل كده.. مصر عاملة زي الخليج.. بس همّ عايمين على بترول وإحنا عايمين على آثار..

بالك يا شيخ.. لو عندنا ناس صح كنا فطرنا واتغدينا واتعشينا دهب.. بس تعمل إيه بقه..

وجدت محمولي يرن:

ـ أيوه يا كيمو.. أنا وصلت البيت وشغلت البلاي ستيشن.

ـ إنت ليه ما قلتش إنك بتشتغل في الآثار؟

ـ إيه يا كيمو.. إنت سكرت ولا إيه نظامك؟

ـ ما تنكرش.. كل الناس بتكلمني عنك وشاورولي كمان على بيتك.. يا حبيبي كل الناس عارفة بيك حتى بتوع مكافحة سرقة الآثار.

ـ هو انت فين؟

ـ ما لكش دعوة.. إنت مخبي عليَّ عشان ما ابلغش عليك.. طب إيه رأيك بقه إني هبلغ (انفض الزملاء الأفاضل من حولي) عشان تتربى.

ـ يا سوسن اهدي أنا مش فاهم حاجة.

ـ بقولك إيه أنا مش فاضيلك دلوقت عندي معاد عند برجين ساويرس وبعدها هرجعلك.

ـ برجين ساويرس؟

ـ آه مستنيني كارينجا وخبؤه، ومش هينفع أتأخر.

ثم أنهيت المكالمة دون انتظار رد فوجدت اتصالاً آخر من صاحب المطبعة:

ـ ينصر دينك يا أستاذ محمد.

ـ خير.

ـ قلت لأبو حسام على اللي انت ناويه وهيجيب الكتب بعد نص ساعة.

من منكم شاهد فيلم «the rock» عندما تلقى الضباط في حجرة العمليات إن نيكولاس كيدج نجح في رفع الإشارات الضوئية الخضراء مما يعني نجاح العملية سلميًا دون داعي لتفجير الجزيرة وقتل الرهائن؟؟ هكذا فعل الزملاء الأفاضل.. قفزوا من حولي ابتهاجًا بعودة الحتت بتاعتي.. وسارع الزميل بالاتصال بكارينجا:

ـ ارجع ارجع المهمة اتلغت، الناس رجّعت المصلحة.

بينما وزع إبراهيم مشاريب على حساب الشيخ شريف لأن ٨ حتت يساووا الشيء الجامد، والحاجات دي رجعت عشان شكلي واد مش وش بهدلة.. بعد قليل دخل شاب عظيم البطن وصغير السن وصرخ أحد الزملاء:

ـ ابسط يا عم أهه الشيخ شريف وصل أهه.

أمسكت بالقهوجي:

ـ هو ده؟

ـ آه.. أمّال انت فاكر مين؟

بوست القهوجي من بُقه وأنا اتصل بحبيبي الرايق:

ـ أيوه يا شريف.. إنت طلعت بريء.

ـ ربنا يعوض عليَّ في عقلك.. تعالى وانجز بدل ما أَنزل أولع فيك.

جريت من القهوة قبل ما يعرفوا الحقيقة ويكتشف الشيخ شريف إنه لبس في خمسين جنيه بالميت حساب عودة كتبي سالمة إلى المطبعة..

كان صراخي وشريف أمام دروجبا وشيفشينكو عاليًا فلم أسمع رنة محمولي إلا بعد ساعتين ونحن نعد الشاي.

ـ أيا كمال.. إنت فين؟

ـ أنا عند شريف.

ـ شريييييييييييييييييييف؟؟

استوعبت الأمر كله مرة واحدة:

ـ يا نهارك أبيض.. إنت عند برجين ساويرس؟

ـ بقالي ٣ ساعات.

ـ معلش حقك عليَّ.. أنا آسف جدًّا لما أشوفك هشرحلك.

ـ لا تشرحلي ولا أشرحلك.. والكتب اللي عند حسام ابقى هاتها انت.. عشان لما تلطعني ٣ ساعات في البرد ده يبقى لك حق...

قهوة الحرية

أنا من مواليد ميت عقبة. ولا زلت أحب هذا المكان وأحن له حتى بعد أن انتقلت إلى إمبابة ثم إلى ٦ أكتوبر الآن. لا زلت أذكر ميت عقبة وشارع الغريب وشارع المشروع والصحفيين، وأذكرها أكثر في وقت الروقان كما يقولون، حين أحب أن أجالس أصدقائي لنحكي في أي شيء إلا الشغل، لنفرغ ما لدينا من ضغوط، وبما أني عرفت أبو كمال على كبر فكان عليّ أن أحكي له عن ميت عقبة وأهلها الطيبين، وعن مولد سيدي الغريب الذي كان يتحول إلى احتفال شعبي كل سنة، وأحكي له عن مطعم سوسو والطعمية السخنة بالسمسم وعصير القصب باللبن وعن كشري حمادة، وكان عليه بدوره ـ بعد أن يسمع كل الحكايات ـ أن يطلب إليّ أن نذهب لنجلس هناك ولو على مقهى لنستمتع بهذا الجو الإنساني الجميل.

شارع المشروع كان هادئًا هذا اليوم كما هو دائمًا وأكثر. طوال الطريق كنت أشكر أبو كمال لأنه جعلنا نأتي إلى ميت عقبة، فرجته على مدرستي الثانوي وعلى بيتنا القديم، ثم تحركنا نبحث عن مقهى. «الحاج عصام أبو وهبة عضو المجلس المحلي يشكر أهالي العجوزة الكرام وجميع القيادات الشعبية والحزبية على الثقة الغالية.. وكل عام وأنتم بخير». كانت اليافطة الإعلانية على الرصيف بصورة رقيقة بالشنب للحاج عصام أبو وهبة

مبتسمًا، وعلى الناصية مقهى كلاسيكي هادئ له طابع تراثي؛ الطاولات والكراسي من الخشب المشغول بالأرابيسك، والجدران مقسمة بشكل الحجارة الكبيرة. إلى الجانب كان يجلس رجل بشنب على مكتب صغير وجواره شيشة، يشبه الرجل على اليافطة الإعلانية وكأنه هو. جلسنا، كانت ثلاث طاولات فقط هي المشغولة، أبو كمال يتفقد المكان وينظر إلى الحاج أبو وهبة وإلى شنبه العظيم، في حين أنظر أنا بتأثر إلى جدران المقهى وأتشمم رائحة المكان وأبحث عن عبق التاريخ والذكريات، لا نسمع صوتًا في المقهى غير صوت التليفزيون الخافت وصورة قناة «art» الرياضية. نبدأ أنا وأبو كمال كالعادة من نصف الحكاية أو الموضوع وكأنه تدريب على الارتجال، أنا وهو والحكايات عن أي شيء، فقد اتفقنا أنه لا حديث عن الشغل الليلة، الطاولات تمتلئ واحدة بعد أخرى والصوت يرتفع شيئًا فشيئًا ليغطي على «art»، وبدأنا نسمع صوت زهر الطاولة حتى تحرك صوت الحاج أبو وهبة من مكانه:

ـ الصوت يا رجالة.. العبوا من غير صوت يا بلاش لعب خالص.

وكانت هذه هي البداية فقط وبعدها آنسنا صوت أبو وهبة كثيرًا، كلما علا صوت سواء بكلام أو بضحك نسمع موسيقى الحاج عصام:

ـ صوتك يا أستاذ.. بلاش الصوت العالي بعد إذنكم.

ولا يرد أحد. أبو كمال بدأ يقلق وأنا عامل نفسي مش واخد بالي وأبتسم بكسوف لأبو كمال الذي يريد أن يقول لي حاجة مش لطيفة ويمنع نفسه. صوت أبو وهبة بدأ يزمجر في اتجاه أحد الطاولات:

ـ أنا مش قلت الصوت؟ همَّ البهوات ما بيفهموش عربي ولَّا إيه؟

وبدأ الرد:

ـ إيه يا حاج؟ إحنا صوتنا مش عالي.. وبعدين دي قهوة مش جامع!

ـ جامع مش جامع وطي صوتك انت وهو يا إما اتفضلوا من هنا.

ـ إحنا قاعدين بفلوس مش ببلاش عشان تقولّنا اتفضلوا.

وهنا انقطع الشريط بنفرة من الحاج عصام أبو وهبة:

ـ فلوس إيه يا ابو فلوس؟ (ووجه رأسه ناحية النَّصْبَة):

ـ يا خالد.. اقفل على باقي المشاريب هنا وما تاخدش حاجة م البهوات.. شكرًا اتفضلوا.. شيل يا ابني الطاولة دي.

قبل أن يردوا حتى كان وقف وأشار بيده إلى الخارج، فخرجوا بدون صوت. أنا غرقان في هدومي من أبو كمال الذي ينظر لي ويمنع ضحكته الأسطورية ويريد أن يقول: «ناس طيبين فعلاً ويغني لي أغنية الترابط الاجتماعي: وردي وردي وردي وردي وردي». فبادرته:

ـ أهل منطقة واحدة.. منهم فيهم.. شايف احترموه ومشيوا على طول ازاي.

فضحك أبو كمال وقال:

ـ أيوه.. أيوه شايف.

ففاجأه صوت أبو وهبة:

ـ وبعدين بقه في اليوم ده.. اطفي السوجارة دي يا كابتن.. الدخان عبأ المكان.

ـ يا حاج سوجارة إيه؟ مش كفاية ما فيش شيش في القهوة؟

ـ اطفي السوجارة يا تشربها بره.. ما تقولّيش شيش وبتاع وتغير الكلام.

تحرك الشاب وهو يقول له:

ـ أنا مش قاعد هنا تاني.. شكرًا يا حاج.

ـ الشكر لله يا كابتن.. شيل يا ابني باقي الطاولة من كل الترابيزات، إحنا مش ناقصين وش.. اللي عايز يقعد.. يقعد هادي ورزين.

تحرك أبو كمال في مكانه ونفخ في وجهي بضيق ـ وأنا عامل عبيط ـ ولا أجد ما أقوله بعد كلام الحاج أبو وهبة وأفكر في نفسي في هذه الصدفة السيئة التي ستقطع رجل أبو كمال من هذا المكان، قال أبو كمال:

ـ مش ياللا بينا ولا انت مستني دورنا.

قلت بسرعة وبصوت منخفض:

ـ يا عم إحنا ما لنا.. إحنا زي الفل لا بنلعب طاولة ولا بندخن ولا بنتكلم بصوت عالي، يعني الحياة جميلة.. ما لوش دعوة بينا.

كان أبو وهبة واقفًا فوق رءوسنا ويقول:

ـ يا مرحب بالأساتذة المحترمين.

فانتفضنا ورددنا في صوت واحد:

ـ ربنا يخليك يا حاج.

ـ شوف يا خالد الأساتذة تشرب إيه (وأشار للقهوجي).

ـ شكرًا يا حاج شربنا.

ـ تاني.. ده انتو ناس محترمين وأول مرة تقعدوا عندنا.. شوف يا خالد (وتحرك إلى مكانه).

فردت صدري وقلت لأبو كمال:

ـ شفت الناس؟ مش قلتلك؟ إحنا كده فرخة بكشك عنده، لا تدخين ولا لعب ولا صوت عالي.

شربنا وعدنا كما كنا، والمقهى تقريبًا لم يعد به أحد إلا نحن، فهدأ الرجل تمامًا وبدأ يدخن الشيشة ويتابع التليفزيون، وظل الوضع هكذا حتى اتسحب أبو كمال من لسانه وقال ولا أعرف ما المناسبة:

ـ عايزين نروح الاستاد بعد بكرة.

ـ ليه؟

ـ ليه إيه يا عم النايم؟!.. ماتش الأهلي وطلائع الجيش ويعتبر نهاية الدوري سواء اتعادلنا أو فزنا هناخد الدوري في الماتش ده.

ـ طب فل.. نروح بس على الله الجمهور يعمل زي كل مرة.

ـ كل مرة إيه؟.. هو ما فيش إلا يوم ماتش الزمالك اللي فات.. ومش جمهور الأهلي اللي بدأ شتيمة وكان كله بسبب الواد شيكابالا أما وقف قدامنا وعمل حركات وسخة بإيديه.. هيج الجمهور.

ـ أيوه يا عم بس جمهور الأهلي محترم كان لازم يفهم إنه بيستفزه.

أبو كمال اتشد وقال بعصبية ما اعتقدش كان وقتها خالص.

ـ الزمالك ده فريق بوابين أساسًا وجمهورهم اتعلم منهم.. دول كل ماتش يعملوا كده...

حاولت أقاطعه ليخفض صوته لكن سبق السيف كل حاجة، ووقف أبو وهبة ملوحًا بيده وهو يتحرك نحونا بالتصوير البطيء وشنبه يهتز وهو يصرخ بشلاضيمه وأنا أتخيله مثل محمد رضا في فيلم ٣٠ يوم في السجن بعد أن أكل الرز بلبن بالشبَّة ويشير بيده خارج المقهى ويقول:

ـ ا طـ ل ل لـ عـ و ااا بـ ررررره بـ رررررررررره..

قبل أن يصل إلينا كان أبو كمال قفشني من قفاي وخرج من المقهى وهو يتحفني بكل ما لديه من رقة وعذوبة، ولم يكن محمد رضا قد انتهى ولكن بطريقة أسرع، وكان قد خرج من المقهى ووقف إلى جانب صورته على اليافطة الإعلانية، بحلق لها للحظة وابتسم ثم عاد لتكشيرته وصرخ بنفس هزة الشنب:

ـ زمالك إيه يا معـ...... ده إحنا هنمسح بيكو الأرض.. قال أهلي قال، ده احنا هنقلعكو هدومكو.

وظل يصوصو بشلاضيمه الرقيقة حتى خرجنا من ميت عقبة.

أبو سمرة

دومًا هناك نهى تطاردك في كل مكان.. أمام الكتاب والدِّش الكمبيوتر والبلاي ستيشن، وتراها في الندوات والأفراح والحفلات، وتمر سريعًا أمام عينيك في الشارع والمترو وموقف الميكروباص وفوق الكباري.

دومًا هناك نهى تزورك بين الحين والحين. نهى، نهى يا عم الحاج، نهى.. مش فاكرها؟!! نهى التي قابلتها أيام الجامعة أو بعدها بقليل، وكنت تراها أكثر من أهلك وأصدقائك، والتي فضت بكارتك بكلمة واحدة وربما بلا كلام على الإطلاق. تلك البنت التي ما إن تكون وحيدًا حتى تهجم عليك بلا رحمة في المطعم والسينما وفي الطريق من باب الجامعة الرئيسي إلى ميدان الجيزة..

لا تقل لي إنك لا تذكرها؛ لأنها أخذت من عمرك سنين، ثم تفارقتما بلا سبب وجيه ليفضِّل كل منكما البرد والوحدة عن الدفء والونس.

دومًا هناك نهى تزورك فجأة بلا مقدمات، تزورك وأنت مرهق بشدة ومترب فتغير ملابسك على عجل، وتهرول إلى مقهى أبو سمرة لتجلس هناك وحيدًا.

إلى منيل الروضة أسير وصوتها يأتيني من أيام الجامعة:

ـ بلاش سيلانترو.. غالية علينا.. حرام لما ندفع خمسة وعشرين جنيه في كوبايتين عصير، ما لها أبو سمرة؟ وحشة؟

أبتسم وأنا أقول بعفوية:

ـ والله ما على الفلوس، بس عايزك تقعدي براحتك أحسن من قعدة الشارع.

ترد بسرعة:

ـ راحتي معاك يا كيمو.

طبعًا كيمو يفرح، ويأخذ نهى إلى أبو سمرة. مقهى واسع جدًّا، وسط بين المقاهي الشعبية والكافيهات ليتناسب مع جلوس الفتيات. يأتي الرجل، الذي هو وسط بين القهوجي والجرسون أبو عشرة في المائة خدمة.

ـ اسم الكريم إيه؟

ـ نوح.

ـ وأنا محمد.. عندكو إيه يا عم نوح؟

يلحظ بالطبع نهى فيسرد بآلية وابتسام:

ـ عندنا كل حاجة يا أستاذ محمد. عندنا برتقان جوافة مانجة فراولة كوكتيل.

ألتفت إليها:

ـ ها يا ستي.. تشربي إيه؟

ـ لا لا.. ما ليش في العصاير، أنا هاخد حاجة سخنة عشان الجو برد.

ـ فيه سحلب وكاكاو و....

تقاطعه بلطف:

ـ ممكن شاي أو ينسون؟

طبعًا الأمر لا علاقة له بالبرد ولكن بميزانيتي، وطبعًا أتجاهل الأمر حتى ينصرف عم نوح. وفعلاً ينصرف الرجل مُحبطًا ولا ينسى أن يبرطم بكلمتين في السكة.. طبعًا بعد ذلك نتحول إلى اثنين (زيادة) في قائمة أبو سمرة التي تجلس فيها وتنظر حولك لتجد خليطًا من الموظفين وطلاب الجامعات والخريجين والثنائيات المشابهة لنا. قائمة عبارة عن ثنائيات تطلب مشروبات رخيصة وتجلس لفترات طويلة. ثنائيات كلها نهى وكيمو. يأتيني اتصال على محمولي الجديد «نوكيا ٣٢١٠» (فينظر لي الناس ببعض الاهتمام) ويستغرقني دقيقة.

ـ مين يا كيمو؟

ـ ده مصطفى الحسيني.

ـ مين مصطفى ده؟

ـ ده واحد بيكتب شعر عامية عرفته الخميس اللي فات.

ـ عايز حاجة؟

ـ كان بيشوفني فين.. كتب قصيدة جديدة وعايز يسمعهالي.

ـ مكلف نفسه مكالمة موبايل عشان كده؟!.. (تبتسم بسعادة لا أدري مبررها) عقبال ما اشوفك أكبر كاتب في مصر كلها.. تعرف؟ إنت هتبقى مشهور قوي.

ـ طب ومصطفى الحسيني؟

ـ هههه ده إنت طماع قوي إنت واصحابك.. ماشي يا سيدي، هو كمان يبقى أكبر شاعر في مصر كلها.. إن شالله ما حد حوش.

يأتي عم نوح بالطلب ولا ينسى بعد نصف الساعة أن يمر عليّ ويقول بحيادية:

ـ تؤمروا بحاجة تانية؟

من أول يوم صرت صديقًا لعم نوح لأني عوضته عن طلباتنا الرخيصة ببقشيش كبير. ولذلك كان متهللاً بشدة وأخذني بحضن رقيق وقبلتين سريعتين عندما رآني:

ـ إزيك يا أستاذ محمد.. عامل إيه؟

ـ الحمد لله.. إزيك انت يا راجل يا عجوز.. لسه الناس بتطلب حلبة فتجيبلها كاكاو؟

ـ هههههه كانت مرة ومش ناسيهالي، ده إنت قلبك....

ـ هااااا قلبي ما له؟

ـ زي اللبن الحليب.. أجيبلك إيه؟

ـ اللي تجيبه مش هقولك لأ.

ينصرف وأجلس أنا على نفس المقعد في نفس المكان. أتلفت بعفوية كأني أبحث عن نهى. كأني لا أصدق أنها تزوجت وعندها طفل. كأني لا أصدق أن عمري يقترب من الثلاثين بلا نهى. أعرف أنها لا تذكرني الآن كما أعرف أن اسمي محمد وشهرتي كيمو، وكما أعرف أن الذي يغني في راديو قهوة أبو سمرة الآن عمرو دياب.. ما لقيتش غير عمرو يا عم نوح تفتح عليه الراديو؟؟.. الله يسامحك.

طبعًا مَن كان مِن مواليد أول الثمانينيات ـ مثلي ـ أو أواخر السبعينيات يعرفون عمرو دياب ومحمد فؤاد والحجار ومنير وأنغام.. يعرفونهم جيدًا، ما من واحد أعرفه إلا و«علِّم عليه» واحد من الخمسة السابقين.. من أول ميال وفي السكة وفي الركن البعيد الهادي وحتى امبارح كان عمري عشرين وحوا وآدم.. الله يسامحك يا عم نوح.. مش وقتك خالص يا عمور..

كانت هناك نهى على الطاولة المجاورة تقول بخفوت أعرفه:

ـ أنا بحب أقعد هنا.. سيلانترو إيه؟ ثم سيلانترو غالية علينا.. حرام لما ندفع خمسين جنيه في كوبايتين عصير، ما لها أبو سمرة؟ وحشة؟

أخبط على جبهتي من الضحك وأتأكد أنهما قادمان حالاً من محل كشري لأنها (طبعًا) لا تحب الفراخ أو الكباب أو البيتزا.. أو أنها تمرض من أكل الهامبورجر والشاورما وأي حاجة (غالية) هههههه كأنك يا نهى لا تمرضين من الفول والطعمية والكشري.. أتزحزح قليلاً لأتمكن من رؤيتهما بشكل أفضل. هي نهى فعلاً بطرحتها الأنيقة والديريل الذي أحبه. طبعًا سيوصلك ويتركك عند أول شارعك حتى لا يراك أحد. سيعود معك بالمترو أو بالميكروباص لأنك رفضتِ التاكسي (عشان بيبصوا لأي اتنين راكبين تاكسي بصة مش حلوة) ويوم عيد الحب القادم بعد ثلاثة أيام، ستؤكدين عليه الآن أنك تعشقين الورد الأحمر الأفضل لك من العروسة الباربي التي كانت عيناك ستخرج عندما رأيتيها.. بعد قليل وضع أمامي عم نوح سحلب وضحك قائلاً بأبوية:

ـ السحلب ده على حسابي.

ـ هههههه ما تخافش مستورة والحمد لله.

ـ والله أبدًا.. مشاريبك النهارده كلها عليّ، بس ليّ طلب عندك.

ـ أؤمرني.

ـ ما تبقاش تغيب.

ثم انصرف تاركني أتابعه بشعره الأبيض وعرجته الخفيفة جدًّا والتي لا يلحظها إلا مدقق. بعد أن وصلت إلى منتصف الكوب سمعت نهى تغني مع كيمو على الطاولة المجاورة.. كان صوتها رقيقًا ونشازًا وحانيًا، وكان صوته صادقًا وغليظًا وبشعًا.. قربت أذني أكثر فتبينت أنهما يغنيان «وماله» لعمرو دياب.. هههه على أيامي في الجامعة كنا نغني «تملي معاك» امممم هو مرور الزمن لا أكثر يا نهى.

أنت تعرف بالطبع أن هناك سارة كما أن هناك نهى. نعم هي بعينها، بعمرها الذي يماثلك، ولم تتزوج حتى الآن لأنها كانت تقضي الوقت في نسيان كيمو (بتاعها) هي الأخرى، هي التي كانت من سنوات تحمل اسم نهى فلما افترقت عن كيمو صار اسمها سارة وصار اسمه محمد.. سارة التي تجلس معي الآن على أبو سمرة ويعاملها عم نوح بخشونة لا تخفى على أحد، ولولا احترامه لي لطردها.. سارة التي لا ذنب لها إلا أنها أدركت وهي تقترب من الثلاثين هي الأخرى أنها لا تزال وحيدة.. سارة التي لا ذنب لها في كونها لا تحبك ولا ذنب لك في أنك لا تحبها.

بعد عدد من الزيارات مع سارة إلى أبو سمرة تلمح في عينيها أسئلة لا تفصح عنها ولا تستفزها لتبوح بها.. إلى أن شعرت بالملل فتسألها:

ـ ما لك يا سارة؟

ـ أصلي ما بحبش قعدة القهاوي.. باحس إني قاعدة في الشارع.

ـ تحبي نقعد فين؟

ـ عارفة إن سيلانترو غالي شوية.. بس أهو أحسن من قعدة الشارع.

ذهبنا إلى سيلانترو وهارديز وكنتاكي وتشيلس وماك وبيتزا ودومينوز وكوستا، وأي حاجة فيها ماركة عالمية أو معروفة، وأي حاجة من بتوع ١٠ و١٥ في المائة خدمة.. لم يكن معي وقتها ثمن تلك الفواتير فكانت تسددها هي كاظمة غيظها.

في مرة لم أعد أطيق فأخذتها إلى أبو سمرة، ووسط تأففها قالت وهي تكتم غيظها بكل ما أوتيت من قوة لتظهر لي أنها حنون:

ـ إنت لسه عايز تخطبني؟

ـ طبعاااااااااااااااااااااااااا..

ـ بيتهيألي لسه ناقصك حبة حاجات عشان نتخطب.

ـ زي؟

ـ زي الشغل.. أقول إيه عندي في البيت لما يسألوني عن شغلك؟

ـ قولي إني باشتغل كاتب.

أعتقد أنها كانت ستقول كلمة من التي يترجمها التليفزيون (تبًّا لك)، لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة وقالت:

ـ أنا بتكلّم جد.

ـ وانا كمان وربنا.

ـ بصراحة أنا لازم أقولّك اللي عندي.

ـ يا ريت.

ـ أنا مش مقتنعة بحكاية إنك متفرغ للكتابة دي... يعني إيه روائي ولا قاص.. مين بيقرا؟ والمردود المالي لكتابتك إيه؟ أنا مش بقلل منك على فكرة بس.....

قلت بحسم:

ـ إنتي ما تقدريش تقللي مني.

رمقني عم نوح من بعيد ولسان حاله كأنه يقول: «لو فيه حاجة يا محمد إغمزني وأنا هنفخهالك».

ـ أوكي أوكي أنا لازم أمشي دلوقت أحسن ما نتخانق.

ـ لا، كملي.

ـ هناكل ونشرب ونلبس ونسكن إزاي من الكتابة؟.. إنت بتصرف على الكتابة.

ـ سارة أنا عارف إنك ما قابلتيش كُتاب غيري تقريبًا أنا والحسيني و....

قاطعتني:

ـ والحسيني ده كمان اللي مالي دماغك بالشعر والكلام اللي ما يأكلش عيش.

ـ بصي يا سارة.. ما لكيش دعوة بأصحابي ثم الفلوس مش كل حاجة وأنا بحب الكتابة.. ممكن أكون كاتب ما ليش لازمة بس سيبيني أجرب، ولما أخبط في الحيطة هقولك إنك كنتي صح.

ـ محمد.. أنا مش بقولك سيب الكتابة.. بس اعمل حاجة جنبها عشان تجيب مصاريفك.. اشتغل صحفي مثلاً.

ـ مش موهوب في الصحافة.

ـ درس عربي للأجانب، ساعات قليلة ومرتب حلو قوي.

ـ مش بحب التدريس.

صمتنا بعدها لحوالي نصف الساعة.. بعدها ذكرتني بعروض السفر للخليج وأمريكا وألمانيا، ثم قالت إن جميع من يعرفها لاحظوا أنها صارت «زي القلم الرصاص» ومهمومة، وإن زملاءها لاحظوا تقصيرها في العمل، وإنها مش مبسوطة ومش مستريحة.. قالت كذلك إني خيالي ومش عارف يعني إيه مسئولية وسأضيع شبابي، ثم تجرأت أكثر وقالت إنها لن تستطيع الزواج من رجل عندما تجلس معه في مطعم أو كافيه يتركها لتدفع هي الفاتورة. ولما كلمتها عن الحب والمشاركة، حسمت الأمر بمنتهى الصراحة، وقالت وهي تأخذ حقيبتها وتنصرف:

- إنت عارف يا محمد أكتر مني إننا مش بنحب بعض.

رآني بعدها عم نوح فقال وهو يضع أمامي فنجان قهوة زيادة:

- كده أحسن.. شكلها كان هيجيبك ورا.

- إنت كده شايف إني طالع لقدام؟

قال بسرعة شديدة:

- بص يا ابني.. طول ما انت بتعمل اللي بتحبه أكيد هتتطلع لقدام؟

ثم غادرني وهو يضحك.. ضحكت أنا أيضًا بجوع. ورأيت الحسيني يأتي من بعيد وببطء بصحبة عبد اللطيف.

كنت كالعادة أسترق السمع لطاولة محمد ونهى المجاورة. ووجدت نفسي أندفع بلا كياسة لأقتحم حوارهما:

- حضرتك اسمك إيه؟

- أشرف. خير.

ـ خير ما تقلقش.. بص يا أشرف اعتبرني أخوك الكبير.

ـ عينيا.. خير؟

أشرت إلى البنت الجالسة معه وقلت:

ـ إوعى تسيب نهى.. لو سيبتها هتندم.

ـ نهى مين؟ دي ما اسمهاش نهى!

ـ مش مهم.. المهم إنك لازم تعرف إنكو هتقابلوا حاجات عبيطة قوي.. هتفتكروها ساعتها إنها تستاهل إن القيامة تقوم وده مش حقيقي.. بعدها واحد فيكو هيقول للتاني إحنا لازم نسيب بعض.

ـ وبعدين؟

ـ ولا قبلين.. أنا بس بقولك عشان ما تقابلش سارة بعد كده وتزعَّل نفسك على الفاضي، لأن سارة برضه معذورة.. فاهم حاجة؟

ـ لأ.

ـ برضه مش مهم، بس خدني على قد عقلي. إوعى تسيب نهى.

ـ حاضر.. حاجة تاني؟

ـ لأ.. بس عايزك تعرف إني مش مجنون، وعلى العموم إنت لازم تجرب بنفسك عشان تصدق.. لازم تقابل سارة بنفسك وتسمعها وهيّ بتأكد عليك إنها ما حبتش حد قبلك، وإن ما فيش راجل لمس إيدها، وإنها مبسوطة قوي إنها عرفتك، وإن الفلوس مش فارقة بس لازم نبقى مع بعض... لازم برضه يا معلم تسمعها وهيّ بتقولّك إنها مش هتقدر تكمل لأنها مش مبسوطة ومش مستريحة.

نظرت إليه فوجدته متضايقًا مني لأبعد حد فقلت ناهيًا الحوار وعائدًا لطاولتي:

ـ أوحش حاجة فينا إننا مش بنصدق اللي حصل للِّي قبلنا.

سمعت صوت عم نوح يقول:

ـ أهلاً بالحبايب.. أهم وصلوا يا أستاذ محمد.. أبو سمرة بتجمع الحبايب.. إزيك يا أستاذ مصطفى.. إزيك يا أستاذ عبد اللطيف.

جلسا إلى جواري فتحولت عن محمد ونهى.. تكلمنا وضحكنا كثيرًا، وشربنا الشاي والسحلب والينسون، ثم انصرفنا عندما سمعنا أذان المغرب لنحضر عقيقة ابن شريف.

قهوة العمر

(١)

الزواج.. الزواج.. الزواج.

وأحلى تحية لعم جلال، الذي يحب أبي وكان أبي يحبه طوال حياته، فلم أكن لأخذله حين عرض عليّ فكرة العفش العُمولة، مع أني حاولت إقناعه كثيرًا بأن العفش الجاهز أجمل وأضمن وأوفر للوقت والمجهود، ولكن روح أبي تقريبًا كانت تزغده في ظهره وتقول له بالصوت الديناميكي المجسم: «ساعد مصطفى.. ساعد مصطفى يا جلجل»، فيرد على كلامي وكأنه لم يسمعه بأنه سيرسلني إلى صديق له في دار السلام يعرف نجارين ماهرين، وسيقوم باللازم، ويستكمل بأن العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام، (وكرر الكلام الذي قاله لي حين لبسني في الكمبيوتر المستعمل أبو ٣ آلاف جنيه) وأن من واجبه مساعدتي في هـذا الأمر تحديدًا، فأنا لا زلت صغيرًا وأبي كان وكان وكان. فسألته عن المكان الذي سيقابلني فيه بالرجل في دار السلام، وقلت له إني كنت هضيع لولا هذه الفكرة وخرجت جري.

(٢)

أن تكون رجلاً.. فهذا لطيف.

أن تكون رجلاً مصريًّا.. فربنا معك.

أن تكون رجلاً مصريًّا وتريد أن تتزوج فلا شيء عندي أقوله وكفى بك ما نويته بنفسك. وعليك أولاً أن تتحمل مسئوليتك في أن تلف كعب داير عند شراء المستلزمات، وأن تذهب وحدك إلى أي مكان وفي أي وقت تشتري ما لا يفيد، بينما تعتذر خطيبتك لأن لديها موعدًا (قهريًّا) مع الكوافير، لا يكون هناك داعي لوجود خطيبتك معك لأي سبب كان، كأن تذهب مثلاً إلى دار السلام لتقابل عم طلعت الذي سيقابلك في مترو دار السلام ويأخذك إلى مكان اسمه «الملأه» لتتفرج على شغل صنايعي نجارة أنت لا تعرف ما سيفصله لك من الأساس، وأن تتصل بصديق لك ليشاركك هذه الفرحة مثلما فعلت أنا واتصلت بأبو كمال فليس لي غيره يشاركني تلك الفرحة العارمة.

(٣)

الرابعة عصرًا بتوقيت دار السلام.

كنت على محطة المترو أبحث عن عم طلعت الذي كان بدوره يبحث عني. أخرجت تليفوني وكلمته فكان تقريبًا يقف أمامي بقميصه الرمادي المقلم وبنطاله البني وصلعته الناصعة إلا من الشعر القليل في جانبيّ الرأس، يظهر على وجهه بعض الإرهاق، لعله من طلوع ونزول

سلالم المترو؛ فهو من المفترض في سن والدي الذي مات. تحركنا من المحطة في اتجاه الملأه، وكان أبو كمال قال إنه سيلحق بي إلى دار السلام وسيتصل حين يصل المحطة.

أسير وعم طلعت ببطء شديد. عرضت عليه أن نركب ميكروباصًا فقال إن المكان قريب جدًّا. رحب بي في خمس أو عشر دقائق، واستفهم مني عما أريده في عشر دقائق ونحن نسير وهو يقف لحظات كل فترة ليهدأ ويستكمل ويشرح لي الخشب وأنواعه والموبيليا وسوق الموبيليا والنصب وأهل الثقة، ولا زلنا نسير ببطء شديد حتى توقف عم طلعت تمامًا وقال لي:

ـ أنا تعبت خالص يا ابو درش ممكن نرتاح خمسة كده في أي مكان «ونظر خلفه فكان مقهى في مكان متسع» نقعد هنا حبة آخد نفسي بس.

وافقت طبعًا وأنا أذكر عم جلال بكل خير.

«قهوة العمر» لم أتفحصها جيدًا، فهي ترانزيت وسنقوم بعد خمسة كما قال لي عم طلعت، ولكنها متسعة ومربعة ونظيفة وأرضيتها مرشوشة بنشارة الخشب والشارع أمامها مرشوش بالماء لتهدئة التراب وتلطيف الجو. جلسنا أمامها. القهوجي كان شابًّا يرتدي الجينز وتيشيرت أسود عليه صورة بوب مارلي، وتسريحة شعره تشبه تامر حسني. تقدم نحونا ورحب بنا باحترام:

ـ الأساتذة يشربوا إيه؟

ـ ٢ زبادي فواكه (عم طلعت فاق وأصبح سريعًا).

رد بدون حتى أن ينظر لي ثم استراح بظهره بنفس الإرهاق وعينيه توحي بأنه لا يستطيع أن يفتحهما. سألته بسذاجة:

ـ عم طلعت.. هو باقي كتير على الملأه؟

رد بنفس البطء:

ـ لا يا ابني كتير إيه!.. دي قريبة جدًّا (ويشير بيده في ٣ اتجاهات).

رجعت بضهري على الكرسي وأنا أنظر خلفي وأقول له:

ـ لأ، هانت يا عم طلعت.. ده إحنا وصلنا خلاص.

ورن التليفون.. كان أبو كمال:

ـ إنت فين يا ابو كمال؟ في المحطة.. طيب إحنا رايحين مكان اسمه الملأه بس إحنا مش هناك دلوقت.. قعدنا على قهوة قريبة جدًّا منها.... أيوه هسأل أهه ثواني معايا (وسألت عم طلعت عن اسم الشارع فبدا كأنه ينوي التفكير في ١٠ دقائق) فالتفت إلى أحد الجالسين خلفنا أسأله:

ـ هو الشارع ده اسمه إيه؟

رد بسرعة وكأنه ينتظر السؤال:

ـ قول له شارع دفتر التوفير.. وخليه يقول للسواق ينزله.

رددت لابو كمال:

ـ شارع دفتر التوفير يا ابو كمال.. هتلاقيني في قهوة اسمها (ونظرت خلفي لليافطة) فقال الرجل:

ـ قهوة العمر..هه ههه.. شارع دفتر التوفير ما تنساش.

المقهى ممتلئ من الداخل، وفي الشارع خمس طاولات أمام المقهى ملأى أيضًا، إحدى الطاولات الخمسة يجلس عليها رجل منفردًا يتحدث في التليفون منذ أن جلسنا.

القهوجي وضع الزبادي أمامنا، لم ألحظ أنه غيَّر ملابسه إلا بعد أن تحرك. كان مرتديًا قميص كاروهات مفتوح وتحته تيشيرت أبيض وتقريبًا نفس البنطلون الجينز وشعره منكوش قليلاً. قلت لعم طلعت:

إيه الأخبار يا عمي؟.. بقيت أحسن شوية؟(وناولته الزبادي).

فاكتفى بإشارة من رأسه، يخيل لي أنها تعني «نعم».

اتصل أبو كمال مرة ثانية وقال إن السواق لا يعرف مكان الشارع فالتفت خلفي أبحث عن القهوجي، شاورت له، كان قد غيَّر ملابسه إلى تيشيرت بوب مارلي تنَّحت له وسألته عن أقرب مكان مشهور فقال:

ـ خليه يقول للسواق ينزله عند بتاع العصير.

فرددت كلامه لابو كمال وقفلت، وناديت على القهوجي وتنحت لملابسه أكثر وحاولت أن أقول شيئًا فتهتهت، فقال لي باستغراب:

ـ الزبادي فيه حاجة يا أستاذ.. مش عاجبك.

فنظرت لعم طلعت وهو يشرب ببطء ولا يعيرني أي اهتمام وقلت:

ـ لأ.. زي الفل.. حلو التيشيرت ده.

ـ اتفضل يا باشا (وتحرك للداخل).

(٤)

الرجل الذي يجلس منفردًا ويتحدث في التليفون منذ أن جلسنا، ارتفع صوته وبدون أي مقدمات:

ـ فين؟ أعمل إيه؟! أشرب عصير؟!! عصير إيه يا محترم.. عيب كده، أما انا اشرب عصير يبقى الناس اللي مش همّ يعملوا إيه.. هه؟ إيه؟.. زعازيع، الزعازيع اللي بتتكلم عنها دي ولا مؤاخذة يعني أنا سايبها لحد تاني.. واخد بالك انت، الزعازيع...هه، أنا عايزك تشخر صدرك كده قدام الناس اللي معاك وتقولهم بعصلجة كده.. هه.. إن الأسطى حمادة بيبو.. هه.. حمادة بيبو.. مش هيشرب عصير.

مش.. هيشرب.. عصير.

وابقى رد عليَّ قوللي قالولك إيه.. سلام يا حتة.

(مع نفسه) قال زعازيع قال.

كنت قد انتبهت له وتنحت فالتفت لي وقال:

ـ يرضيك انت.. طب ينفع الأسطى حمادة بيبو، يا نهار ابيض (وزعق فيّ) طب إيه رأيك بقه انا مش هشرب عصير.

(٥)

ـ إيه يا عم طلعت.. إنت ما بتكلمنيش ليه؟

ـ لا يا ابني ولا حاجة.

ـ طب إنت كويس يعني.. فيه حاجة مضايقاك؟ هتقدر نروح للنجار ولّا إيه؟

ـ خمسة بس جسمي يفك أحسن حاسس إن رجليَّ منملة ومش شايلاني.

ـ منملة.. وما له يا عم طلعت، واهو يكون صاحبي وصل.

دقيقة وابو كمال اتصل قال لي إن السواق نزله عند محل عصير كبير اسمه الخديوي، فبحثت بعيني عن القهوجي حتى وجدته بقميصه الكاروهات فلم أعقب تلك المرة وسألته عن اسم محل العصير القريب، قال اسمه «توحة» فقلت لابو كمال إنه نزل غلط، واستحلفته بكل حاجة أن يأتي بسرعة.

(٦)

واحد حيطة عدّى قدامي ودخل على الرجل بتاع الزعازيع من غير إنذار سابق:

ـ يلعن ميتين.. يا ابن ديك.. يحرق.......

وتلطيش في كل النواحي، وبتاع الزعازيع يضربه بضهر التليفون في رأسه لحد ما مسك منه التليفون ورزعه على الأرض اتفتت. الناس قامت تجري عليهم وشفت خرطوم مياه يخرج من القهوة يمسكه القهوجي اللي لابس تيشيرت بوب مارلي وخلفه نفس القهوجي بقميصه الكاروهات وفتح المياه على الاثنين غسلهم، وقفت مكاني صنمًا حين رأيت القهوجي مقسومًا اثنين واحد يرش المياه والثاني يسب ويلعن، حتى جروا من أمام المياه وجلس الناس، فصرخت في عم طلعت:

ـ يا عم قوم شوف.. القهوجي يا عم، ده يوم إيه ده، هو إيه اللي بيحصل للناس!

قام طلعت نص مفزوع:

ـ فيه إيه يا حبيبي؟

ـ القهوجي بقى اتنين واحد كاروهات والتاني بوب مارلي.

جلس عم طلعت مرتخيًا:

ـ أيوه أيوه.. ما همّ توأم يا حبيبي اقعد.. اقعد.

تنحت وجلست مبتسمًا ابتسامة كعبول:

ـ أيوه يا عم طلعت.. ما انا فاهم بس بهزر معاك عشان افوقك شوية.. (أسكت لحظة وأستكمل) إحنا مش هنروح للنجار بقه؟

ـ طب يا ابني مريح جسمي لحد ما صاحبك يظهر.

ـ يعني صاحبي هو المشكلة؟!

خرجت التليفون واتصلت على كمال:

ـ إنت فين؟

ـ أنا في «ابو أشرف».

ـ أبو أشرف مين؟

ـ مكان اسمه ابو أشرف يا زفت، فين عصير توحة؟ ما فيش أي حد عارفه.

ـ اقفل وهكلمك تاني بعد ما اسأل.

تحركت ناحية القهوجي (الدبل فيس) أبحث عن أي علامة تانية فلقيته ماسك في بعضه قرب النصبة وصوتهم ارتفع لما اقتربت منهم:

ـ إنت اللي بتقعد الناس اللي زي دي هنا؟

ـ بس ياد يا ابو كافولة انت.. دول زباين.. هطردهم يعني؟

ـ إنت أصلك مـ.....

ـ أنا مـ.... يا ابن الـ.....

(همّ الناس دي مش اخوات ولا إيه) تراجعت خطوات للخلف وكانا يتقدمان للخارج، وبادر أحدهما قرينه بقلم معتبر على وشه لم يرده الآخر واكتفى بالهياج وهو يردد: إنت بتضربني.. انت بتضربني. وكأنه لم يسمع صوت القلم اللي عوج له وشه، وجرى ناحية النصبة سحب جركن وفتحه وجرى به في المقهى يرش منه على الأرض ويقول:

ـ انا هحرقهالك عشان تبقى تمد إيدك عليَّ.

الناس ماسكين قرينه وهو يقول ببرود:

ـ ياد يا ابو كافولة تحرق إيه.. إنت لسه شنبك مخضر من ساعة ونص.

لم يقترب أحد من الناس ناحية أخوه وكأنهم شافوا المشهد قبل ذلك، وقرينه أخرج علبة كبريت من جيبه ونادى له بنفس البرود:

ـ خد.. خد الكبريت (وألقاها له) عشان ما تتعبش وتدور على حاجة تولع بيها القهوة.

أنا الذي صرخت هذه المرة وجريت على عم طلعت:

ـ قوم يا عم طلعت.. قوم هيحرقوا القهوة.. قوم.

ـ صاحبك وصل؟

ـ يا عم قوم ما فيش صاحبي.

ـ هنروح للنجار لوحدنا يعني؟

(الواد القهوجي كان يرش تحتنا من الجركن).

ـ يا عم قوم هنتحرق هنا (وأشده من قميصه الرمادي).

يزيح يدي بهدوء ويقول:

ـ اقعد بس يا مصطفى يا حبيبي لحد ما اشرب الزبادي بالفواكه.

فجريت من أمامه وأنا بدعي جوايا إنه يتحرق:

ـ خليك يا عم الحاج اشرب براحتك.

ـ رايح فين؟ طب والنجار يا حبيبي؟

ـ لأ شكرًا مش هتجوز خلاص.. ابقى سلملي على عم جلال وبوسهولي من بُقه.. ما تنساش.

قهوة روض الفرج

(١)

• ٥٠٠ جنيه مدام إيناس.

• ١٠٠٠ جنيه الباشمهندس محمد.

• ١٥٠٠ جنيه أستاذ محمد.

• ٣٠٠ جنيه كفالة اللاب توب.

• ٥٠٠٠ جنيه عبد الله.

• ٤٥٠ جنيه نهى.

• ٨٠٠٠ جنيه عمي إبراهيم.

• ١٦٧٥٠ جنيه

قال الحسيني:

ـ ممكن ندفع النهارده فلوس مدام إيناس ونهى والباشمهندس.

قلت وأنا أضع القلم أمامي على المكتب وأزفر متضايقًا:

ـ والباقي؟

ـ الشهر اللي جاي هنقبض باقي فلوس الدفعة الثالثة إن شاء الله نسدد ألفين لعمك وفلوس أستاذ محمد.. وبعد شهرين انا هقبض فلوس المعاش نسدد ألفين بتوع عبد الله أخويا.

ـ كده نبقى هنسدد النهارده ١٩٥٠ وبعد شهر ٣٥٠٠ وبعد شهرين ٢٠٠٠، يبقى في خلال شهرين نقدر نحذف من الديون ٧٤٥٠ ويتبقى ٩٣٠٠.

ـ هانت.

ـ هانت إيه؟ عمي هيقلعني هدومي، أهو من ساعتها لا هو عارف يرجع م الكويت ولا انا عارف أسافر البلد.

ـ الله يا كمال يعني احنا بنلعب؟ أمال كنا هنقدم ورق المؤسسة منين؟

ـ خلاص خلاص ربنا يسد ما علينا إن شاء الله.

طرقت أمي الباب ففتحت وأخذت منها صينية الشاي فقالت للحسيني:

ـ سلامو عليكو.. إزيك يا مصطفى.

ـ وعليكم السلام.. الحمد لله يا طنط.

ـ عاملين إيه في ورقة وقلم؟ بعتوا هدومكم ولا لسه؟

ـ هههههه شوية كده يا طنط دعواتك.

ـ هههههه بدعيلكم يا بني تلاقيلكم شغلانة عدلة بدل الكتب والأدب وتروحوا دبي ولا الخرطوم حتى.. ابقى سلملي على مراتك.

خرجت فقلت بسرعة قبل أن يؤنبني الحسيني:

ـ اشرب بسرعة عشان نلحق عماد.

(٢)

وصلنا الفيلا في المعادي.. جلسنا في الريسيبشن في انتظار عماد الذي فوضه مستر ناجي من الحسابات ليسلمنا الدفعة الأولى من مبلغ رعاية سلسلة ورقة وقلم. رن محمول الرجل الجالس إلى جواري فسمعته يقول:

ـ خلاص يا مستر ناجي.. خلاص حفظت العنوان.. معايا عربية.. نص ساعة وأكون في دير الملاك.

وقف الرجل فقلت فورًا:

ـ لو وصلت بدري ما تقعدش على قهوة أولاد كريم.

ـ أفندم؟!

ـ أنا نصحتك.

ـ ربنا يشفي.

انفجر الحسيني في الضحك وغادرنا الرجل وقبل أن يخرج صرخت به مبتسمًا:

ـ هياخدوا منك العربية.

قلت لنفسي كما أن الحاج الذي دفع كفالة اللاب توب يعمل مع أولاد كريم فلابد أن مستر ناجي يفعل ذلك. يفتعل أمر حماته فيحضر الزبون إلى دير الملاك وعلى أولاد كريم الباقي. قلت نكتتي للحسيني فضحك وقال:

ـ بكرة هنضحك على الأيام دي.

ـ يا عم الحاج بقى لنا ٣ سنين بنقول هنضحك... بقول إيه. ما تيجي نضحك دلوقت.

وقف أمامنا عماد الذي رآنا نضحك فقال:

ـ ما تضحكوني معاكم.

ـ إنت رحت لناجي دير الملاك قبل كده؟

ـ لا.

ـ لما تروح هنضحك كلنا.

ـ هههههه.

شربنا النسكافيه والقهوة الزيادة وصرفنا الشيك، ثم عزلنا ١٩٥٠ جنيه على جمب، وضعناهم في ثلاثة أظرف وكتبنا على كل واحد اسم صاحبه. بعد أن خرجنا اتصلنا بكل واحد نتفق على موعد لنسدد له دينه. اعتذرت لنا إيناس وقالت خلوها بكرة. ونهى قابلتنا في مترو دار السلام. أما الباشمهندس قالنا تعالولي في روض الفرج هخلص مشوار هناك ونتقابل بالمرة، خدوا العنوان.

كان مكتبه به إصلاحات ولا مكان به لاستقبال أحد، فقال:

ـ الله! إنتو لحقتوا تيجوا!؟ معلش استنوني بقه على القهوة اللي تحت العمارة.. ربع ساعة وأكون عندكم.

ـ لا لا ما فيش داعي نعطلك.. إحنا جايين ندِّي حضرتك المبلغ ونستأذن.

ـ والله ما يحصل.. هيّ الناس ما تقعدش مع بعض بعد المصلحة ما تخلص.

أحرجنا بكلمته فابتسم الحسيني وقال:

ـ حاضر يا باشمهندس.

شعرت بفأر فقلت مادًا يدي بالظرف:

ـ طب خد حضرتك واحنا مستنينك.

(٣)

كانت المقهى أنيقة إلى حد كبير بالنسبة للمكان الذي تقع في إطاره. وتجلس مجموعة مبشرة بالخير ولا تبشر بعسلية أو توفيق أو يحيى فشعرت بطمأنينة. كان هناك أكثر من تليفزيون: واحد يعرض «Remember the Titans» لدينزل واشنطن على الإم بي سي تو، وواحد يعرض مباراة أتيليتكو بلباو مع برشلونة على الجزيرة الرياضية، وواحد يعرض روتانا طرب لمجموعة تعتبره مثل الراديو ومنشغلون عنه بلعب الطاولة والدومينو.

قال الحسيني:

ـ طبعًا إنت مش هتقوم النهارده.. الله يخرب بيت الكورة.

ـ صح كده دي كورة عشان كده بتفرج لكن اللي عندنا سحلب.. المفروض يسموه دوري السحلب.

سمعنا صوتين وللا سبب صمتنا متواطئين.

ـ يا حاج مجدي.. التلاتين ألف دول أنا مش طالعلي فيهم غير خمسة بس ويمكن يصفصفوا على تلاتة.

ـ أنا ما قلتش حاجة يا أستاذ أشرف، بس أنا اللي جاهز معايا ٢٥ ألف وربنا المعبود سالف منهم خمسة من أخويا.

ـ والله مقدر ظروفك بس جمال بيه تعريفته معروفة هياخد منك ٢٥ عشان يعينلك ابنك في الوزارة زي ما اتفقنا والمساعد بتاعه ألفين وأنا تلاتة.. واسأل أي حد عن جمال بيه مش هيقولك غير كده.. تصدق بالله..؟

ـ لا إله إلا الله.

ـ كان عايز أربعين ولما شرحتله ظروفك قاللي مش مشكلة إحنا عايزين نخدمه.. فبالله عليك يا حاج ما تزود بقه عشان الموضوع يتم على خير.

ـ بس إنت ضامن ان جمال بيه هيوظفه؟

ـ عيب الكلام ده يا حاج.. ده راجل واصل في المجلس والحزب وشهرته نار على علم.. لو مش هيعينه اعرف كده من نفسك إن ابنك مش هيتعين خالص.

ـ أصلي بقول معقولة يكلف خاطره عشان ابني.

ـ يا حاج هوّ يعني عاملها لوجه الله؟ ما هيلهف ٢٥ ألف.

ـ على رأيك.

ـ والله لولا الحكومة وقفت التعيين ما كنتش خليتك دفعت مليم، ده حسن ده زي ابني.

أخرج الحاج كيس بلاستيك أسود وضعه أمام أشرف وقال:

ـ ماشي.. المبلغ كله أهه وربنا يجعله بفايدة.

وضع أشرف مبسم الشيشة في فمه واللي بين فخذيه وأخذ يعد المبلغ في سرعة شديدة، وقال له:

ـ يا حاج هيّ دي فلوس؟ أمال لو كنت عايز ابنك الصغير يخش كلية الشرطة ولّا حتى معهد أمناء الشرطة كنت هتعمل إيه. أكتر من ٨٠ ألف دلوقت.

لم ألتفت إلى ميسي الذي أحرز هدفًا صاخبًا، وكنت مع الحسيني نتابع الحاج مجدي والأستاذ أشرف. انتهى الرجل من العد فقال الحاج:

ـ تعرف ان ابني مش عايز يتعين.. بيقولي يا بابا هندفع تلاتين ألف عشان اتوظف بمية وتمانين جنيه في الشهر.

ـ معزور يا حاج أصله لسه صغير. دلوقت لما يتعين التلاتين دول هيبقوا تلتماية لو حابب.. كل واحد وعلى قد نيته وضميره.

ـ والله إحنا لو علينا مش عايزين قرش حرام.

شعر أشرف فيما يبدو بأن الليلة ستسود عليه فقام مستئذنًا فقام معه الحاج مجدي. وبمجرد أن التفت إلى الحسيني المندهش المكتئب رن محمولي فوجدت محمد الصحفي قال مباشرة:

ـ أنا بعمل تحقيق عن علاقة الأدباء والمؤسسات بالتطبيع.

ـ وعايز إيه؟

ـ أبدًا عايزين نعرف موقفكم من التطبيع كتجمع «ورقة وقلم».

ـ ورقة وقلم بعيد عن السياسة والدين والقضايا الأدبية.. إحنا بنشتغل إدارة أدب بس.

ـ اسمحلي يا محمد ده كده مش رد.. هل إنتو بتطبعوا مع إسرائيل؟

ـ يا ابني وزارة الثقافة اللي هيّ وزارة الثقافة ما تطبعش.

ـ آه ولا لأ؟

ـ ده انت غبي بقه.

ـ أنا غبي؟ يبقى اللي بيتقال عنكو بقه صح وانتو بتطبعوا وانا اللي ما كنتش مصدق.

أغلقت المحمول في وجهه وشعرت بالدم يندفع إلى رأسي، فقال الحسيني:

ـ ما تردش على الصحفي ده تاني.. مش هتخلص م الوش بتاعه ولو حلفتله ١٠٠ يمين انك مش مطبع هيكتب اللي هوّ عايزه. سيبك منه.

جاء الباشمهندس وسلم علينا.. تذكرت الحاج مجدي وأشرف.. كان بالنسبة لي أن يدفع رجل ما بالاستدانة رشوة ثلاثين ألف جنيه ليقبض ابنه ٢١٦٠ جنيها في السنة.. يعني يحتاج إلى ١٤ سنة ليردهم، ويمكن أن نختصرها بالمكافآت والحوافز إلى ١٠ سنين.. كان الظرف يبرز على استحياء من جيب بنطلونه فراودتني فكرة خبيثة.. فتحت محمولي وطلبت رقم الصحفي.. تركت الحسيني مع الباشمهندس محمد ووقفت أتكلم مع الصحفي:

ـ لا لا لا أنا زعلان!

ـ وانا بتصل بيك عشان ما تزعلش.

ـ بقه انا بتصل بيك عشان توضح موقفك للناس اللي بتقول عنكم في كل حتة إنكم بتطبعوا و...

ـ هقولك على الحقيقة، بس بيني وبينك، وممكن تعتبرها مش للنشر.

ـ خير (بلهفة صحفي) قول.

ـ إحنا ضد التطبيع فعلاً.

ـ يا عم ما انا عارف بس انا قلت كده عشان أخليك تتكلم لأنكم مش بتتكلموا ف السياسة.

ـ بس فيه حاجة تانية يمليها عليَّ ضميري وحابب أقولهالك.

ـ قول.

نظرت إلى الباشمهندس وهو يُعدِّل من جلسته وابتسمت ثم قلت بمنتهى الجدية:

ـ إحنا بنتمول من جهات أجنبية.

ـ إيه (ملدوغًا)؟ بتقول إيه؟

ـ ششششش.. شفت بقه.. عشان كده ما كنتش عايز أقولك.. أمال تفتكر الكتب ومصاريف التجمع والمشروعات، ده كله منين؟ بنستلف مثلاً.. بنبيع حاجتنا؟ بنجيب رعايات وإعلانات؟

ـ أمال الإعلانات اللي على الكتب دي ازاي؟

ـ محبة.

ـ أنا برضه قلت إن الإعلانات فشنك والعيال دي بتتمول ما حدش صدق.. وزمايلي يقولولي إنكم بتفحتوا في الصخر بقالكم تلات سنين.. ماشي يا كمال بس أحييك على الصراحة.....

ـ أنا اعترفتلك لأنك حريص على مصلحة ورقة وقلم.. فكَّر كده كويس واسأل الحاج مجدي هيقولك إن ما فيش حاجة اسمها شغل.

ـ حاج مجدي مين؟

ـ ده الراجل اللي بيجيبلنا تمويل.

ـ آآآه.

ـ قول ورايا..

ـ إيه؟

ـ كمال والحسيني بيتمولوا من بره.

ـ اتني ركبك.. خد شهيق.. كمال والحسيني بيتمولوا من بره.

ـ برافو.. إعلى بالصوت.. كمال والحسيني بيتمولوا من بره.

ـ زمايلك جنبك؟ قلّهم: كمال والحسيني بيتمولوا من بره.

ـ أحسن شباب.. اعلوا بالصوت مش سامع.

ـ اديني رئيس التحرير.. حضرتك؟ كمال والحسيني بيتمولوا من بره.

ـ اديني رقم الفاكس.. كمال والحسيني بيتمولوا من بره.

قهوة حسن
(أبي.. صاحب الدهشة)

أنا..

بلا ذكريات.

هكذا أحب أن أكتفي باللحظة الحاضرة - أو أوهم نفسي بذلك - وأحب أن أفتخر أمام نفسي أني أنسى سريعًا ما مضى، وأبتسم لما سيأتي. لكن أبي مش مبسوط كده، وينتهز أي فرصة ليهبط على رأسي ويذكرني ويحكي لي ما يحلو له. هكذا هو، يأتي ويشاور لي ويقول بهدوءه الأنيق: «انت بتشتغل نفسك يا ابو درش» ويبتسم.

أعرف أن أبى يقاوح ولا يريد أن يصدق أنه مات من أكثر من سنتين.. ماااااات، (طب أفهّمه ازاي) لكني أحبه وأصدقه وأتركه يحكي - وليس أفضل من هذه الفرصة ليأتينى وأنا أكتب عن المقاهي وأحكي عنها - تمنينا دائمًا أن نكون صديقين، أن أسمعه ويسمعني بلا تكليف، وينتهي الكلام بيننا بأن أحضنه مثلاً وأشكره على سعة صدره، وأن يشكرني لأني أحسن صديق له، أن أطلب منه ألا يقول لأحد ما قلته له، فأنا أثق به كصديق، وأن يؤكد هو عليَّ ألا أقول ما قاله لي لأمي ويترجاني ثم يهدد في النهاية

بأنه سيقطع صداقته بي إن خرجت كلمة، واحتمال يقطع المصروف والمعونات كمان. تمنينا وتمنينا وتمنينا.. حتى قلت له وهو يرقد في آخر مستشفى:

«عاجبك كده يا عم الحاج؟.. آديك بتموت».

* * *

أنا وهو الآن في قهوة حسن القريبة من شارع الأزهر. المكان كأنه لوحة فنية بالألوان الزيت وخصوصًا القهوة ومعمارها المملوكي وكأننا رجعنا ٧٠٠ سنة أو أكثر. حملني بيديه من تحت إبطي وأجلسني على الكرسي الخشب الأصفر فتعلقت رجلي في الهواء، وجهه كان محمرًّا وتلعثم وهو يقول لي: معلش.

فاستغربت وقلت له:

ـ معلش على إيه يا بابا.. إيه اللي حصل؟

فتلفت للمقهى حوله وقال لي بنفس الصوت الخجلان:

ـ إني قعدتك على قهوة يعني وانت لسه صغير.. بس انا تعبت من المشي.

فمرجحت رجليَّ وقلت وأنا بضحك:

ـ ده مكان حلو.. بس شربني كوكاكولا.

كنا مجهدين، فاليوم كان طويلاً في زيارة سيدي علي نور الدين وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة والسيدة زينب، أبي كان مداومًا على زيارتهم كل شهرين أو ثلاثة وكان يأخذني معه.

تقدم إلينا سليمان القهوجي (كما قال اسمه لأبي حين سأله كالعادة عن اسم الكريم) بجلبابه الأبيض الناصع، رحب بأبي وسأله:

ـ تشرب إيه يا بيه؟

فرد أبي:

ـ شاي خفيف.

فنزل بصدره وأشار لي وهو يبتسم:

ـ والافندي الصغير؟

فرددت وكأني أنتظر صوته:

ـ أنا كبير على فكرة.

فقال له أبي وهو يضحك:

ـ هات له كوكاكولا.

كانت المرة الأولى التى أجلس فيها إلى مقهى وتقريبًا ـ كما عرفت بعد ذلك بكثير ـ أنها كانت المرة الأولى أو الثانية لأبي، ففهمت لماذا كان يعتذر، كان غريبًا لي حين عرفت أنه لم يجلس أبدًا إلى مقهى فاندهشت لدرجة أني لم أعلق ولم أسأل. وضع سليمان المشاريب أمامنا وهو يقول:

ـ أسقع كوكاكولا للافندى الكبير. (وخدوده تهتز من الضحك وأنا أنظر له دون حركة فانكسف وتحرك وهو يضرب كفًا بكف).

أشار أبي أمام وجهي المتنح لسليمان وسألني:

ـ اتبسطت النهارده؟

ـ أيوه.. الطعمية السخنة اللي عند سيدي علي نور الدين كانت حلوة.

ـ بس... ده اللي عجبك؟ (وهو يخبطني على رأسي).

ـ لأ، اتبسطت.. أنا بحب اروح معاك سيدى علي وسيدنا الحسين، بس عايز أطلب منك حاجة.

ـ اطلب.

ـ خدني معاك في كل حتة تروحها.

ـ بس كده.. حاضر يا أستاذ.

يومها كان أبي في نفس سني أو أكبر قليلاً.. خمس سنوات. حكى لي عن أبيه وكيف أنه كان يمنعه عن المقاهي وجلسات الأصدقاء، حكى عن حفلة أم كلثوم الوحيدة التي حضرها دون أن يعلم أحد، ذهب إليها وحده، لم يكن لديه أصدقاء، ولم يكن ليرضى جدي أن يصحبه، ابتسم لي وقبل رأسي وأنا أقول له:

ـ يا عم ولا يهمك.. أنا أوديك حفلات محمد فؤاد وعمرو دياب لو عايز ونقعد على القهوة كل يوم كمان.

فرحت جدًّا لما شفته بيبتسم وفهمت أنه وافق.. وإلا لماذا يقبل رأسي!

قال لى وهو ينهي كوب الشاى:

ـ خلص إزازتك علشان نمشي.. ولا انت مش عايز تروّح؟

ـ بصراحة.. لأ.

ـ طب ياللا يا غلباوي.. اتأخرنا على ماما.

نطيت من الكرسي وقلت له:

ـ أنا عايز أدخل الحمام قبل ما نمشي.

ـ مش هتقدر تستحمل للبيت؟

ـ لأ.

ـ طب ثواني «ونادى لسليمان القهوجي».

ـ أؤمر يا بيه.

ـ فيه حمام هنا؟

ـ فيه مبولة آخر القهوة على اليمين.

ـ ما فيش حمام عادي؟

ـ لأ والله يا بيه.

فتحركت خطوة للداخل وأنا أقول:

ـ عادي.. هتنفع البتاعه المبولة دي.

فقال أبي:

ـ استنى يا مصطفى انا هاجي معاك أساعدك.

(خدود سليمان تهتز من الضحك وهو يشير لي ويقول):

ـ مش هيطول المبولة أصلاً يا بيه.

وقف أبي وتحرك نحوي فأشرت له بكف يدي أوقفه وأنا أتحرك للداخل وأقول:

ـ أنا هتصرف.. شوف انت بس خدود عمو سليمان مالها على ما اخلص واجيلك.

وادي النيل

(ثورة الشك)

كمال:

بعد أن انتهت تشطيبات شقتي سألتني أمي عن المُزة المقترحة لتشاركني أحلامي وطموحاتي وطعامي... وشقتي. قلت لها إنه لا مُزز، وإن نقودي التي سأحصل عليها طوال الأشهر القادمة تكفيني لتأثيث حجرة مكتب ليرتاح أخي مصطفى الذي لا يعرف أن ينام بسبب تضارب مواعيد النوم - ونحن في غرفة مشتركة - كما أنه لا يعرف أن يذاكر لأن لدينا مكتبين، واحدًا للكمبيوتر والآخر لكتبي! وبالتالي حين أخرج أو أدخل فلا بد من بعض الضجة غير المفتعلة ولكنها تكفي لإيقاظه... من العدل إذن ألا أفكر في أي مزة لأن المكتب أولى بالتأكيد من بنوتة زي العسل تأتي لتشاركني الشقة لا أحلامي وطموحاتي..

بعد أيام، وبعد أن تأكدت أمي من عزمي على تأجيل الزواج، سألتني عن الخطوة التالية لتأثيث المكتب فقلت لها:

- أكيد عربية.

مطت شفتيها بحسرة وأحضرت لي حسن النجار الذي سيوضب لي مكتبة وترابيزة كمبيوتر عجب.. فاتصلت بالحسيني:

ـ عايز ركنة زي بتاعتك اللي جبناها من المعادي.. ياللا ننزل نشتري واحدة.

ـ هتعمل بيها إيه؟

ـ أوضة مكتب في شقتي اللي في الدور الثالث.

الحسيني:

أنا في بيتي القديم بإمبابة.. الحكايات كلها تطاردني هناك.. وخصوصًا سارة والجامعة وصوت حسام الذي يطاردني دائمًا ليحذرني من كل شيء. أنام على تلك السيرة وأنتفض على صوت تليفون أبو كمال وكل ما فهمته من المكالمة أن موعدنا بعد شوية ـ لنعتبرها ساعة ـ أحاول أن أفيق وصوت سارة يملؤني.. خير اللهم اجعله خير.. كنت قد فارقتك أخيرًا، وكأنها السنوات لم تمر، وكأن حسام يقف أمامي يكلمني عن الفراق والحب وكيف أني لا يجب أن أثق بأحد حتى وإن كان أمي.. (فكرني بالأستاذ الكبير محمد هنيدي) ويكمل بصدى صوته: لف مهما تلف هترجع تقول حسام قاللي.

أغسل وجهي ٣ مرات لأفيق، وأنزل لألحق موعد أبو كمال.

ولم أكن أعرف أنه لم يكن حلمًا.. فقد رأيتها في شارع أحمد عرابي.

كمال:

أنا الآن في قهوة وادي النيل.. تلك المقهى التي استقر عليها الرأي بيننا.. الشارع كله اسمه وادي النيل وذهبت إليه مع الحسيني أكثر من مرة؛

فهو قريب من مطار إمبابة حيث كان يسكن الحسيني، وقريب من منزل محمد صديقه الذي كنا نزوره أحيانًا.. جلست في انتظاره ومطمئنًا لأربعة آلاف جنيه وخمسمائة في حقيبتي ثمن الركنة. كانت قهوة وادي النيل بها لمسة غريبة لم أتبينها.. قهوة عادية: شيش ونصبة وقهوجي وطقاطيق. لكن يظل هناك إحساس غريب بالمكان. لا يهم.

ـ عنَّاب ساقع.

ابتسم واحد كان يجلس إلى طاولة مجاورة وقال:

ـ يعني ما طلبتش ينسون؟

ـ اشمعنى؟

ـ أصل كل الشيوخ بيشربوا ينسون.

ـ معلش بقه.. أصل أنا مش شيخ مع الأسف.

ثم دار بيننا حوار عقيم متكرر حول «وطب انت مش شيخ مربي دقنك ليه؟» و«انت إخوان طيب؟» و«بتصلي فين وبتحب تسمع مين؟». ثم توقف الرجل تمامًا حين قلت له:

ـ كفاية كده عشان مش عارف أشرب العناب.

شعرت بالهدوء بعد فاصل مدته دقائق من هذا الرجل، ثم تناهى إلى مسامعنا في التليفزيون الذي يذيع أحد برامج قناة الجزيرة.. سألني واحد من الجالسين كأنه لا يسألني، وهي طريقة متعارف عليها بين رواد المقاهي وربما بين المصريين:

ـ مش بالذمة ده حرام؟ يرضيك كده؟

ـ خير؟

ـ العيال بتوع كفاية.. شوف نازلين فيهم ضرب ازاي!

وكعادة هذه المحادثات لم أعره انتباهًا كثيرًا واكتفيت بهز رأسي، فعاجلني بسؤال كان موجهًا في الأصل للجالس إلى جواري:

ـ تفتكر كفاية دي حركة بجد ولا الحكومة هيّ اللي محركاهم؟

رد الرجل:

ـ أكيد الحكومة.. العيال دي قابضة.

تدخلت على الفور:

ـ لا يا جماعة.. دي حركة وطنية واللي فيها بره الحكومة والحزب، وناسها ناس شريفة مش بتوع قبض.

اعتدل الرجل وسأل:

ـ وانت عرفت منين إن شاء الله؟ إنت عضو فيها؟

ـ لا.. بس أكيد ناس زي عبد الوهاب المسيري مش هيبقوا قابضين.

ـ إنت حضرت لهم مظاهرات؟

الحسيني:

هي كما كانت دائمًا.. تأسر من يراها، كنت أظن أنها ستنطفئ، فخمس سنوات كفيلة بذلك، لكنها خذلتني، وقفت أمامي بشعرها الداكن وابتسمت وكأننا كنا معًا البارحة، أي بنت هذه التي تحمل ابتسامتها كما هي طيلة خمس سنوات لا تتغير. أسألها دون توقف وتسألني هي الأخرى عما كان في السنوات الماضية، نتحرك معًا وكأننا كنا متواعدين. نتحدث بسرعة وبلا ترتيب عن العمل والزواج والظروف والذكريات والجامعة والحكايات القديمة (نسير في اتجاه الزمالك لا أعرف كيف؟!) وعن

سفرها وكيف أنها تود أن تسافر ولا تجد ما يبقيها هنا. أحدثها عن الكتابة وعن الشعر وكيف أني أكتب وصدر لي ديوان، وعن حياتي الجديدة وأرى اندهاشها وهي تقول إني تغيرت كثيرًا وأؤكد لها أنها هي التي تغيرت وهي تنكر (صوت حسام يلسعني في أذني: سارة لأ.. سارة لأ).

فوقني صوته على سؤال مش لطيف:

ـ يا نهار ابيض.. هي الساعة كام؟

ـ إيه اللي حصل؟

ـ لا ما فيش.. أبو كمال زمانه حمض.

ـ أبو كمال مين؟

ـ ده واحد كان صاحبي لحد ساعة فاتت.

ـ هشوفك تاني؟

ـ هه.. أشوفك .. آه طبعًا.

ـ طب قول تليفونك.

ـ تليفوني (حسام بيضربني على وشي) هاتي أكتبهولك.

ـ سلام..

ـ سلام..

كمال:

سمعت واحدًا يقول:

ـ كومال.. إزيك يا ابني.

التفت للصوت فوجدته محمد ـ صاحب الحسيني ـ قمت إليه وبعد كلام عابر سريع جذبني للخارج قليلاً وقال:

ـ إنت إيه اللي مقعدك هنا؟

ـ مستني مصطفى.

ـ وما لقتش غير هنا؟

ـ خير (وأنا أتلفت بغريزية إلى داخل المقهى) هوَّ فيه إيه هنا؟

ـ إنت مش واخد بالك إن القهوة دي تبع المخابرات؟

ـ مخابرات (بصوت عالي نسبيًّا)؟

ـ شششششش.. أي حاجة مكتوب عليها وادي النيل تبقى تبع المخابرات.. شركة وادي النيل للمقاولات ومستشفى وادي النيل وجرنان وادي النيل.

ـ لا والله ما اعرفش المعلومة دي.

ـ آديك عرفت.. خللي بالك بقه.. وابقى سلم لي على مصطفى.

الحسيني:

مكروباااااااااااااااااااااااااااااااص.

أبو كمال زمانه بيسب ليَّ.. أركب إيه من الزمالك دلوقت.. أي حاجة تروح أي مكان قريب من أحمد عرابي، وقفت ميكروباص بيقول ميدان لبنان، قعدت في الكنبة الأخيرة وبدأت في مونولوج داخلي بدون سيطرة ولا توقف:

ليت أحمد عرابي ما كان أحمد عرابي! وليت المهندسين ما كانت المهندسين! وليت أبو كمال ما كان أبو كمال! وليتني ما وافقت على المقابلة في وادي النيل ولا في المهندسين كلها، وليت سارة ما كانت سارة (أظن العرب القدماء كانوا يولولون هكذا في أشعارهم) وليت أم

الحسيني ما ولدت الحسيني، وليتني سمعت كلام حسام وهو يأكد عليَّ: إلا سارة لو إن الدنيا اتنيلت فضيت عليها اعمل عبيط يا تعمل عملية وتقلب (عسل حسام) لكن سارة لأ. ليتها ما كانت مُزة طبيعية بدون مكسبات طعم ولون ورائحة.

وإذا بصوت مش ولا بد يفوقني على كلمة وادي النيل ويكرر باندهاش: وادي النيل!!

رجل مندهش يشبه الموظفين القدامى ويفتح فمه في وجه زميله إلى جواره ويستكمل:

ـ يا راجل يعني وادي النيل دي اسم لأي حاجة تبع الحكومة؟

ـ أيوه يا عم إنت مالك اتخضيت ليه؟ دي الناس كلها عارفة.

ـ بجد وحياة أبوك.. الناس كلها عارفة انها تبع الحكومة؟

ـ أيوه.. المخابرات، أمَّال همَّ بيجيبوا فلوس منين؟ ما هو من شركة العقارات والمستشفيات والمحلات اللي اسمها وادي النيل، أمال يعني هيسموها شركة المخابرات ومستشفى المخابرات ما هو لازم اسم حركي.

ـ عندك حق.، صحيح.. يا ولاد الإيه.

(أنا شعري واقف حاليًا).

وادي النيل يا نهار أبيض.. مخابرات.. (روح حسام حضرت) عشان كده أبو كمال مصمم على القهوة دي.. بس هو ما صممش يا حسام.. لأ صمم.. إنت عبيط ياد انت.. أبو كمال؟ طب ليه.. يمكن يكون كمين؟ كمين إيه هو انا بتاع مخدرات.. يمكن هو ده اللي بسمع عليه بتاع الجيل اللي كان بيكتب تقارير عن صحابه للأمن والكرنك والأفلام دي، بس أنا

ما فيش حاجة تأذيني أنا ما بعملش حاجة مش تمام. بقه كده يا ابو كمال.. قال وانا اللي كنت زعلان عشان نسيته وقعدت شوية مع سارة.. يا ترى اشتروك بإيه، ولا ضربوك وأجبروك تدبس أي حد في أي حاجة وبياخدوا منك التقارير هناك في القهوة بدل ما يودوك المقر بتاعهم وحد يشم خبر عنك.. بقه كده يا ابو كمال (صدى صوت حسام) هي الدنيا جرى فيها إيييييييه آدي أعز اصحابك طلع جاسوس مع الأمن.

(عينيّ احمرت) ماشي يا ابو كمال.. هي دي الصحوبية.. أنا جايلك عشان أواجهك بالعار بتاعك..

جايلك.

كمال:

رددت داخلي بغيظ: «الحسيني».. بطريقة صدى الصوت المعروفة في الأفلام.. عدت إلى مقعدي وبدأت المشاهد تتوالى في عقلي كالأفلام حين ينكشف اللغز أمام البطل والمشاهد:

١

معلش يا كمال بلاش نتقابل في ميدان لبنان خليها في وادي النيل.

٢

إنت مربي دقنك ليه؟

٣

هو إنت إخوان؟

٤

بتوع كفاية بيقبضوا (لأدخل إلى الحوار) ثم..

٥

إنت عضو في حركة كفاية؟

٦

إنت حضرت لهم مظاهرات؟

الحسيني الذي سيأتي، بالتأكيد، متأخرًا حتى يتيح لهم فرصة استجوابي.. هل اتصلوا بالحسيني ليتأكدوا من سلوكي الديني والسياسي.. هل سيتصلون بي لأنقل ولأسهل لهم مهمة التعرف إلى أفكاره الشخصية كما فعلوا معه.. ماشي يا حسيني.. بقه كده.. مخابرات مرة واحدة؟ طب خليها أمن دولة.. ماشي يا سيدي.. براحتك.. على العموم لا يوجد ما أخاف منه أو عليه.. وموقفي من الحكومة شديد الوضوح: بحبها بحبها وفي قلبي ساكن حبها.. وبالنسبة للرئيس فأنا من الذين يرددون اخترناك.. اخترناك ـ حتى بعد الانتخابات ـ فاضل إيه يا ابو كمال؟ فاضل إيه يا ابو كمال؟ آه موقفي من التوريث.. امممممم ودي هقول فيها إيه دي؟ لا حرام لساني مش جايبني.. الله يحرقك يا حسيني على اللي انت عامله فيَّ.

عدت إلى الكرسي فرمقني الجرسون وبدأت أعي الإحساس الغريب الذي راودني عندما جلست.. الحكومة لها هيبتها. الحسيني تأخر بالفعل فنظرت إلى ساعتي فسألني الجرسون:

ـ هو حضرتك مستني حد؟

قلت باندفاع:

ـ يعني مش عارف؟

هز رأسه باستغراب وانصرف، وبعد خمس دقائق من الغليان لمحت

الحسيني يقترب ببطء وفي عينيه نظرة غريبة تحمل معنى «ها.. خلصت الاستجواب ولا لسه؟» سلم عليّ بفتور أكد الشك داخلي. نظرت إليه وبحيرة الشك تتسع..

وتتسع..

وتتسع..

وتتسع..

عن المؤلِّفَيْن

محمد كمال حسن

ولد في فبراير ١٩٨١ بمحافظة بني سويف، وتخرج في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة عام ٢٠٠٢. ثم تفرغ للعمل الأدبي منذ أغسطس ٢٠٠٥. صدرت له رواية «تماثيل الملح» في فبراير ٢٠٠٦ عن المجلس الأعلى للثقافة، ويصدر له قريبًا المجموعة القصصية «فيلم رعب» عن دار أزمنة بالأردن. وعنوان مدونته: www.mkhassan.blogspot.com

مصطفى الحسيني

ولد بالقاهرة في أكتوبر ١٩٨٢. تخرج في كلية التجارة جامعة القاهرة ٢٠٠٣. تفرغ للكتابة في سبتمبر ٢٠٠٥. صدر له «تحت خط الضحك» ديوان شعر بالعامية المصرية عن المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧. حصل على منحة تفرغ من وزارة الثقافة المصرية فى أغسطس ٢٠٠٧ عن تجربة شعرية حول «النداءات الشعبية للباعة الجائلين». وعنوان مدونته:

www.m-hosyny.blogspot.com

أسس الكاتبان معًا «تجمع ورقة وقلم الأدبي» في ٢٠٠٥، ثم أسسا دار مزيد للنشر في ٢٠٠٧. وفي ٢٠٠٨ صدر لهما كتاب «عندما أسمع كلمة مدونة» عن دار مزيد ودار العين.

مدونـ@الشروق

سلسلة جديدة تصدرها دار الشروق للمدونات العربية المتميزة.

.. الموضوع مش شوية كراسي وكام ترابيزة وطقطوقة مركونين في دكانة أو على رصيف أو في شارع وشوية خلق قاعدة تلعب دومينو وطاولة ولا يتفرَّجوا على ماتش ويشربوا شايهم ويمشوا، مش بس اتنين أصحاب اتقابلوا اتكلموا شوية ومشيوا، ولا ناس عدت بالصدفة قعدت وقامت.. أنا كنت فاكرها كده، لحد ما فكرت أقعد أتفرج واسمع وبس. واعرف يعني إيه قهوة ويعني إيه حكايات ويعني إيه مسرح، ومن ساعتها وانا بعصر دماغي علشان أفتكر إمتى أول مرة قعدت على قهوةوكنت عامل ازاي وكنت بمثل دور إيه واللي كان بيتفرج قبلي يا ترى كان رأيه إيه...







دار الشروق
www.shorouk.com